الفصل الرابع

الغزل الشاذ : الغزل فى المذكر

وإنما نسميه بالشاذ لأنه جديد فى أدبنا العربى الذى لم يعرفه فى تاريخه الطويل منذ الجاهلية حتى منتصف القرن الثانى . ولم يكن ظهوره على مسرح الشعر العربى فجأة وبلا مقدمات ، إنما مهدت له عوامل كثيرة تكمن كلها فى العادة البذيئة التى استشرت فى مجتمعنا العربى منذ ذلك التاريخ إلى وقتنا الحاضر ، وهى ظاهرة الميل إلى الغلمان وتعشقهم وارتكاب الفاحشة معهم ، وهذا يقتضى الحديث عنها قبل الدخول فى الموضوع .

ظاهرة الميل إلى الغلمان

الميل إلى الغلمان أو الارتكاس (Inversion) أو الجنسية المثلية (Homo sexuality) — كما يسميها علماء النفس — ظاهرة قديمة عرفها غير العرب منذ أقدم العصور . فقد عرفها اليونانيون والقرطاجنيون والإسبارطيون وغيرهم[1] ، حتى إن المؤرخ إدوارد غيبون عد الانحطاط الخلقى من أسباب سقوط رومية وبيزنطة ، وأشار إلى وجود الفاحشة فى أثينا ورومة[2] . وكانت هذه الفاحشة شائعة شيوعاً عظيماً فى بنى إسرائيل لمدة طويلة ، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك فى قوله تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر . . . »[3] . وفى قوله : « ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون »[4] .

---

(١) يراجع فى هذا : أخان الخان . لعبد الرحمن صدقى ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٢) انظر : أبونواس (سلسلة الكشاف الأدبية ط ٣ سنة ١٩٤٦) لعمر فروخ نقلا عن :

Ed. Gibbon, Decline and fall of the Roman Empire.

(٣) العنكبوت (٢٨ — ٢٩) .

(٤) الأعراف (٨٠ — ٨١) .

أما العرب فلم يعرف عنهم مثل هذا الميل قبل القرن الثانى الهجرى إذا استثنينا حالات فردية قليلة يمكن أن تسلك فى الحالة الثالثة من حالات المرتكسين فى تقسيمات فرويد ، وهى الارتكاس العرضى الذى يتم فى ظروف خارجية معينة من أهمها صعوبة الحصول على أى موضوع جنسى عادى[١]. وقد ذكر هذه الحالات الفردية الجاحظ فى رسالته (مفاخرة الجوارى والغلمان) ، روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أتى بلوطى فهدم عليه جداراً ، وأن خالد بن الوليد كتب إليه فى قوم لاطوا فأمر بإحراقهم . أما على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقيل إنه أتى بلوطى فأمر به فأصعد المئذنة ثم رمى منكساً على رأسه وقال فيه : « هكذا يرمى به فى نار جهنم » . ويستفاد من كلام الجاحظ أن حالات من هذا النوع وجدت فى العهد الأموى بدليل إحراق جماعة من اللاطة من قبل ابن الزبير وهشام بن عبد الملك وخالد ابن عبد الله بأمر من هشام كذلك[٢] . ويذكر أن عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد كان لوطيًّا وزنديقاً ، قيل إنه راود مرة سعيد بن عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت فشكاه إلى هشام بن عبد الملك ، ومن ثم أبعد عبد الصمد عن تأديب أولاد الخلفاء[٣] . وربما كان ذلك من الأسباب التى دعت هشاماً إلى أن يطلب إلى الوليد بن يزيد إخراج عبد الصمد عن منادمته[٤] .

كل الدلائل تشير إلى شيوع هذه العادة السيئة وانتشارها الذريع فى العصر العباسى منذ منتصف القرن الثانى الهجرى لوفودها عن طريق الفرس ، يؤكد هذا نص من رسالة الجاحظ فى المعلمين . قال الجاحظ : قال حمزة الأصفهانى : « إن الشعراء قاطبة من أيام ولد الشعر قبيل الإسلام إلى آخر بنى أمية كان تشبيبهم بالنساء لا غير ، إذ كانت دواعى عشقهم من جهة النساء . فلما أقبلت دولة المسودة من الشرق مع أهل خراسان أحدث فيهم اللواط لارتباطهم الغلمان ، فشبب شعراء الدولة بالذكران». وقال الجاحظ : « إن السبب الذى أتاح اللواط فى أجناد خراسان خروجهم فى البعوث

---

(١) ثلاث رسائل فى نظرية الجنس – لفرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتى ٣٠ .

(٢) انظر : مفاخرة الجوارى والغلمان (بتحقيق شارل بلا) ٢ ، ورسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ٢ / ١٠١ – ١٠٢ .

(٣) شرح مقامات الحريرى ٢ / ٣٥٠ .

(٤) الأغانى ٧ / ٩٠٨ .

مع الغلمان وذلك حين تعذر عليهم اصطحاب النساء والجوارى حين سنّ أبو مسلم صاحب الدولة فى تلك العساكر ألا يصحبها النساء خلافاً على جند بنى أمية فى إخراجهم النساء معهم فى العساكر . ولم يكن لهم بد من غلمان يخدمونهم ، فتعود القوم ذلك فى أسفارهم فلم يقفلوا منها إلى منازلهم إلا وقد تمكنت منهم . . ولو كانت هذه الشهوة شائعة فى الأعراب لتعشقوا الغلمان بها ؛ ولو تعشقوا الغلمان لنسبوا بهم ، ولتهاجوا ولتفاخروا ولتنافسوا فيهم ويجرى فى ذلك من الشر مالا يخفى مكانه »[١] . يدعم هذا أن أبا مسلم الخراسانى سئل عن ألذ العيش فقال: « طعام أحبر ومدام أصفر وغلام أحور» ولما سئل عن تقديم الغلام على الجارية قال: « لأنه فى الطريق رفيق ، وفى الإخوان نديم ؛ وفى الخلوة أهل »[٢] . وتوجد إشارة إلى الأصل الفارسى للفاحشة فى شعر يوسف بن الحجاج أحد الشعراء الفساق المجاهرين باللواط إذ قال[٣]:

إن هذا اللواط دي ن تراه الأساورة
وهم فيه منصفو ن بحسن المعاشرة

وقد حاول الدكتور على شلق من المعاصرين أن يدفع ما روى عن الجاحظ ويثبت أن للانحراف الجنسى صدى فى الشعر العربى الجاهلى معتمداً على ضياع أكثره وعلى ما ورد فى القرآن الكريم؛ فقال: « إذا طلبنا صدى الانحراف الجنسى فى الشعر العربى الجاهلى الذى ضاع كثير منه واختلف لا نعدم إشارة إليه . والقرآن نفسه حجة قاطعة فى أن العرب عرفوا هذا الانحراف الجنسى فذكر لهذا الآية (١٩) فى سورة الإنسان: (يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً). عرضت هذه الآية فى مجال ترغيب المؤمنين فى نعيم الجنة . فنحن لا نذكر حورها

---

(١) أبو نواس – لعمر فروخ (٨٥ – ٨٦) نقلا عن صفحة من كتاب المعلمين للجاحظ عثر عليها المؤلف فى مخطوط ديوان أبى نواس من جمع حمزة الأصفهانى فى برلين :

Hss. zu. Statsbiblioth R. Berlin, Nr. 7532.

ولقد وجدت نصا مشابهاً لهذا النص فى كتاب (ثمار القلوب) للثعالبى (٤٣٩ – ٤٤٠) . ويراجع فى الموضوع أيضاً : الصراع بين الموالى والعرب – لمحمد بديع شريف ٩٤ .

(٢) محاضرات الأدباء ٢ / ١٤٤ .

(٣) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ٩٥ .

إلا بذكر ولدانها ، هنا يعد كلام الجاحظ مدفوعاً بخصوص كلامه فيما وجد من كتاب المعلمين ، كما يندفع كلام الذين أشاروا إلى هذا الشذوذ من المعاصرين والقدماء» .[١] أما عمر فروخ[٢] فراح يبحث عن جذوره فى الشعر الجاهلى فخيل إليه أنه اهتدى إليها ببيتين فيهما لفظ المذكر ، أحدهما لطرفة وهو قوله :

وفى الحى أحوى ينفض المَرْدَ شادن مُظاهِر سِمْطى لؤلؤ وزبرجد[٣]

والآخر للنابغة وهو قوله :

هذا غلامٌ حَسَنٌ وجهُهُ مُقْتبلُ الخير سريعُ التمامْ

وهذان البيتان وإن كان فيهما لفظ المذكر إلا أنهما لا يمتان إلى الغزل فى المذكر بصلة ولا يشيران إلى أية جذور كما توهم . فطرفة لما قال «فى الحى أحوى» شبّه المرأة بالظبى الأحوى وهو الذى له خطتان من سواد وبياض ، والسمط الخيط من اللؤلؤ . فشبهها بالظبى فى طول العنق وطى الكشح وحسن العينين ، فاللفظ على الظبى والمعنى على المرأة . ومما يقوى هذا قوله فى البيت الذى يليه مباشرة :

خذول تُراعى رَبْرباً بخميلة تناولُ أطراف البرير وترتدى[٤]

قال يوسف الأعلم الشنتمرى شارح ديوانه «قال خذول والخذول نعت للأنثى وقد قال أحوى والأحوى لا يكون إلا ذكراً ، لأنه على طريق التشبيه فإذا شبهها بالظبى فقد شبهها بالظبية فكأنه إذا قال كأنها ظبى قال كأنها ظبية[٥]» . وانتبه ابن رشيق إلى بيت طرفة نفسه فقال «فإن وقع مثل قول طرفة (البيت . .) فإنما هو كناية عن الغزل بالمرأة»[٦].

---

(١) أبونواس ٢٢٨ .

(٢) أبونواس (سلسلة أعلام الفكر العربى) ٨ .

(٣) المرد : ثمر الأراك . الشادن : الظبى الذى قد تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . المظاهر : اللابس واحدا فوق الآخر . السمط : الخيط من اللؤلؤ .

(٤) الخذول والخاذل : التى خذلت صواحبها. تراعى ربربا: تراقبه وتنظر إليه. الخميلة : أرض سهلة ذات شجر . البرير : ثمر الأراك . ترتدى أى تتناول ثمر الأراك فتهدل عليه الأغصان .

(٥) ديوان طرفة (طبعة شالون عام ١٩٠٠ م) ص ٥ .

(٦) العمدة ١/١٩٨ .

أما بيت النابغة فهو أحد أبيات أربعة مدح بها الشاعر النعمان بن الحارث أخى عمرو وهو يومئذ صغير ، فقال[١] :

هذا غلامٌ حَسَن وجهُهُ مقْتبِلُ الخيرِ سريعُ التمامْ
للحارث الأكبر والحارث الـ (م) أصغر والأعرج خير الأنام
ثم لهند ولهند فقد ينجع فى الروضات ماءُ الغمام[٢]
ستةُ آبائهم ما هُمُ هم خير من يشرب صفو المدام[٣]

وعليه فإنه ينتفى أن تكون للغزل فى المذكر جذور فى الجاهلية ، ولكن لا نستطيع أن نجزم بانتفاء الفاحشة فيها وهى إن وجدت لا تعدو حالات فردية كالذى وجدناه فى العصرين الراشدى والأموى ، ثم إن وجودها لا يلزم بأية حال أن يكون لها صدى فى الشعر الجاهلى . وفى نص للجاحظ نقله الثعالبى إشارة غامضة إلى وجود الفاحشة عند بعض قبائل الجاهلية علماً بأنه فى رسالته (مفاخرة الجوارى والغلمان) لم يشر إلى شىء من هذا عند الجاهليين ، قال الجاحظ : « وقد ذكر الناس أن بالهند شيئاً من هذه الفاحشة ليس بالفاشى ، وذكر بعض أهل البلدان ، وبعض القبائل الجاهلية وبعض ملوك اليمن بهذا الشأن . ولكن لم نجد الأشعار بذلك متسعة والأخبار متفقة »[٤] .

اتضح مما تقدم أن العامل الأساسى فى ظهور الميل إلى الغلمان هم الفرس الذين نقلوها إلى العرب ، وساعد عليها عوامل أخرى أدت فى مجموعها إلى ظهور الغزل فى المذكر كأى فن من فنون الشعر الأخرى ، ولا عجب ، فقد وجد الشعراء المجان ممن أولع بهذا الغزل فى مجتمع فشا فيه هذا الميل حتى شمل الشعراء وغير الشعراء وأصبح يشكل صورة كبيرة فيه .

يذهب محمد بديع شريف إلى أن الفاحشة والغزل منحدران من أصول مانوية

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ١٥٨ ، والأغانى ١١ / ١٩ — ٢٠ .
(٢) فى الأغانى : . . . . . فقد أسرع فى الخيرات منه إمام .
(٣) فى الأغانى :
خمسة آباء وهم ما هم هم خير من يشرب صوب الغمام .
(٤) ثمار القلوب ٤٤٠ .

معتمداً فى ذلك على ما قاله البيرونى فى تاريخه عند الكلام على المانوية من أن كل ما نوى كان يصطحب غلاماً أمرد ويستخدمه فى شئونه[١] .

كما وُجدت فى هذا العصر دُور للقيان والبغايا وجدت دور للهو الشاذ تجمع بين القيان والغلمان كدار أبى الأصبغ بالكوفة الذى كان صاحب قيان وغلمان ، وكان ابنه الأصبغ جميلا حتى إن الشعراء أمثال مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد كانوا يألفونه ويعشقونه . فى الأغانى أن يحيى بن زياد ظفر بالأصبغ مرة عندما أرسله أبوه إلى يحيى يدعوه لمجلس شرب فى بيته، فقال مطيع بن إياس أبياتاً فى هذه الحادثة[٢] . ودار إسماعيل القراطيسى الذى كان مألفاً للشعراء ، فكان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم « يقصدون منزله ويجتمعون عنده ويقصفون ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان »[٣] وفيه قال أبو العتاهية :

لقد أمسى القراطيسى ... رئيساً فى الكشاخين

روى أبو الفرج أنه اجتمع يوماً أبو نواس والحسين الخليع وأبو العتاهية وهم مخمورون فقالوا : أين نجتمع ؟ فقال القراطيسى[٤] :

ألا قوموا بأجمعكم ... إلى بيت القراطيسى
لقد هيَّا لنا النُزْل ... غلامٌ فارِهٌ طوسى
وقد هيا الزجاجات ... لنا من أرض بلقيس
وألواناً من الطير ... وألواناً من العيس
وقينات من الحور ... كأمثال الطواويس

تحدث الدكتور يوسف خليف عن هذه الدور وعن الصور التى كان يرسمها

---

(١) الصراع بين الموالى والعرب ٩٤ نقلا عن :

Rescher arab, ht, s. 16 Ahlwardt, Uher poesie and poetik, s 56.

(٢) الأغانى ١٣ / ٣٢٧ — ٣٢٩ .

(٣) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ٨٨ .

(٤) الورقة ١٠٧ — ١٠٨ والأغانى (ساسى) ٢٠ / ٨٩ .

أصحابها ، والأجواء التى يهيئونها لروادها وبخاصة الشعراء منهم كالقراطيسى ، وشبهها بدور اللهو فى العصر الحاضر فقال : « فكانوا يرسمون فى شعرهم صوراً مغرية لما يهيئونه لروادهم من متع ولذات ، ويفتنون فى رسم هذه الصورة وفى عرضها عليهم كما يفعل أصحاب دور اللهو فى العصر الحديث حين يعلنون عما أعدوه لروادها من (برامج) ممتعة تضم ضروباً من اللهو واللعب مع فارق أساسى وهو أن أصحاب دور اللهو العباسية من الشعراء كانوا أشد صراحة وأكثر إباحة فى عرض برامجهم من نظرائهم فى العصر الحديث »[١] .

ولم يقتصر الأمر على مثل هذه الدور حسب ، ولكن وجود الغلمان كان من أهم متطلبات المجان ومجالسهم وأماكن قصفهم ولهوهم وتطرحهم التى كانت تجمع بين الشراب والغناء والعبث بالغلمان والتهتك بالقيان . فمن أحد المجالس التى ضمت حماد الراوية وحكم الوادى ومطيع بن إياس كتب مطيع إلى عرف بن زياد يستدعيه ، فقال[٢] :

نعم لنا نبيذ وعندنا حمـــاد
وخيرنا كثير والخير مستزاد
وكلنا من طرب يطير أو يكاد
وعندنا وادِينُا وهو لنا عماد
ولهونا لذيذٌ لم يَلهُهُ العباد
إن تَشْتَهِ فساداً فعندنا فساد
أو تشته غلاماً فعندنا زياد
ما إن به التواء عَنًّا ولا بعاد

وكثيراً ما كان يجتمع الشعراء على مثل هذه الأمور ، وكان من أضخم اجتماعاتهم ذاك الاجتماع الكبير الذى ضم داود بن رزين والحسين الخليع وفضلاً الرقاشى وعمراً

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٢/ ٥٨٩– ٥٩٠ .
(٢) الأغانى ١٣ / ٢٩٧ ثم انظر ٢٩٥ و ٢٩٦ أيضاً .

الورّاق وحسيناً الخياط وعنان جارية الناطفى وعلىّ بن الخليل والقراطيسى ورزيناً الكلبى وابن الخزاز وأبا نواس ، فأخذ كل منهم يدعو هذه العصبة إلى مجلسه أو بيته عارضاً بضاعته وما عنده ، والأشعار التى قالها كل منهم شاهدة على ما كان يدور فى هذه المجالس من خلاعة وتهتك ومجون[١] . ومن تلك الاجتماعات أيضاً اجتماع آخر لحماد عجرد ومطيع ووالبه ويحيى بن زياد وأبى نواس ، وقد قيلت فيه أشعار لا تخرج فى معانيها عما تضمنته وثائق الاجتماع الكبير السابق[٢] .

لم يقف التهتك بالغلمان وارتكاب الفاحشة معهم على الشعراء، وإنما تعداه إلى غيرهم من العلماء والأدباء . وممن عُرف بالميل إلى الغلمان أبو عبيدة النحوى البصرى المعروف ، قال عنه ابن خلكان: « وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام لأنه كان يُتهم بالميل إلى الغلمان »[٣] . ومما قاله أيضاً أن أبا عبيدة خرج إلى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الصمد الهلالى ، فلما قدم عليه أوصى موسى غلمانه فقال لهم : « احترزوا من أبى عبيدة فإن كلامه كله دق »[٤] . وفى أبى عبيدة قال أبو نواس[٥] :

صلى الإله على لوط وشيعته ... أبا عبيدة قُلْ بالله آمينا

فأنت عندى بلا شكٍّ بقيتهم ... منذ احتلمت وقد جاوزت سبعينا

ومنهم الكسائى الذى يذكر صاحب الأغانى عنه نادرة بهذا الخصوص مع سعيد ابن وهب وغلام استأثر به الكسائى وحده حتى قال فيه سعيد[٦] :

أبو حسن لا يفى ... فمن ذا يفى بعده

أثرت له شاداً ... فصايَدَهُ وحْدَه

---

(١) راجع أشعارهم فى : ديوان أبى نواس (فاجنر) ٥٩ — ٦٤ . والمحاسن والأضداد للجاحظ ١٥٣ — ١٥٥ .

(٢) ديوان أبى نواس (فاجنر) ٦٩ — ٧٠ .

(٣) وفيات الأعيان ٤ / ٣٢٩ .

(٤) المصدر السابق ٤ / ٣٢٧ .

(٥) ديوان أبى نواس (آصاف) ١٧٦ ومحاضرات الأدباء ٢ / ١٤٣ .

(٦) الأغانى (ساسى) ٢١ / ٧٠ وينظر : الكناية والتعريض للجرجانى بشأن الكسائى واللواط ص ٢٩ .

واظهر لى غـــدرةً وأخلفنى وعـــده
سأطلب ما ساءه كما ساءنى جهده

كما أصبح اللواط فى هذا العصر تهمة يقذف بها الشعراء بعضهم بعضاً على نحو ما كان من أمر سلم الخاسر ووالبة بن الحباب . قال سلم يهجو والبة :

يا والبَ بن الحباب يا حلقى لست من أهل الزناء فانطلق

فرد عليه والبة وقال : سلوا عنه ربعان التميمى ، وكان ربعان هذا كما يروى أبو الفرج لوطيًّا آفة من الآفات . وكان علامة ظريفاً ، ويروى عنه أنه حتى الهيثم ابن عدى لم يفلت من قبضته[1] . ثم وصل الحد بالشعراء إلى الاعتداء على غلمان بعضهم؛ فقد بعث أبو نواس غلاماً له اسمه إسحق إلى عمرو الوراق يستهديه زجاجة نبيذ ، فحبس عمرو الغلامَ ساعة ثم بعث إليه بها فلما وافاه كتب إليه أبو نواس[2] :

بعثت أستهديك قرّانة فجدت يا عمرو بقنينهْ
وبعد ذا إن غلامى أتى به انكسار وبه لينـــه
تخبرنى وجنتـــه أنه قد طعن السكينة فى القينه
فابعث بأخرى تلك مَهْرٌ له لا يعتدى فى كفه طينه

وربما غلطوا ببعضهم بسبب الغلمان كالذى حدث لأبى يعقوب الخريمى لما غلط به حمادُ الراوية لأنه نام خطأ مكان غلام كان ينوى أن يدب حماد عليه[3]

ومن شر البلية فى هذا العصر أن يعم هذا الأمر وتصبح مراودة الغلمان فى الشوارع وكأنها أمر عادى أو يكاد بحيث يمكن تشبيهها بمعاكسات الشباب للفتيات فى الوقت الحاضر. وهذه رواية لابن منظور تدعم هذا الزعم . تقول الرواية: « شَربَ صديق لأبى نواس دواء فأهدى له أصحابه هدايا ، فمضى أبو نواس إلى باب الكرخ

---

(١) الأغانى (ساسى) ٢١ / ٧٩ .
(٢) أبو هفان ٥٩ .
(٣) الأغانى ٦ / ٨٤ و ١٤ / ٢٤١ .

وطلب شيئاً يهديه إليه ، فنظر إلى غلام جميل حسن المنظر ، بديع الجمال ، فراوده ، فأجابه، فأراده أن يصير هدية لصديقه، فلما دنا من بابه رأى الغلام جماعة فى الباب يعرفونه ، فجذب يده من يدى أبى نواس وولى هارباً . فكتب أبو نواس إلى صديقه :

يا واحد المكرمات والمنن ... أعقبك اللهُ صحة البدن
خرجت أبتاع طرفة لك لا ... تضر فى رخصها ولا الثمن
من بين وردٍ وبين سوسنة ... وبين ريحانة على فنن
فقلت : ظبى منعم غنج ... أحسن من كل منظر حسن
فجئت أقتاده بمقوده ... أخـذت منه جميع...[1]
حتى إذا صرت عند بابكم ... حَل شباك الهوى وأفلتنى
فلا تلمنى ولُمْ كشاخنةً ... قد لزموا الباب يافتى اليمن[2]

وهكذا كانوا يتهادون الغلمان ، ومن هذا القبيل ما يروى أن مطيع بن إياس أهدى غلاماً إلى حماد عجرد وكتب إليه: « قد بعثت إليك بغلام تتعلم عليه كظم الغيظ[3] » ، وأن حماداً أهدى غلاماً إلى صديق له وكتب إليه ما كتب مطيع[4]. وليس من المصادفة أو الغرابة أن نجد من بين شعراء هذا القرن وناسه من ابتلى بهذا الداء فاعلا ومفعولا أو ما يمكن أن يسمى بأصحاب اللذة المضاعفة ، ومنهم حماد عجرد وسهيل بن سالم[5] ، وفيهما يقول بشار من جملة أبيات بذيئة تشير إلى هذا ، قال :

فهْدَيْن طورا وفَهَّادَيْن آونةً ... ما كان قبلهما فَهْد بفهاد[6]

---

(١) فراغ فى الأصل .
(٢) ابن منظور (طبعة بغداد) ٢ / ٦٨ — ٦٩ .
(٣) الأغانى ١٤ / ٣٥٥ .
(٤) المصدر السابق ٦ / ٨٤ .
(٥) سهيل بن سالم مولى بنى سعد، كان من أشراف البصرة. وفى داره نزل أبو جعفر المنصور أيام كان مستتراً ، فلما استخلف ولاه السوس وجند يسابور ثم قتله بعد ذلك (الأغانى ١٤ / ٣٣٠) .
(٦) ديوان بشار ٣ / ٢ . ويضرب المثل بالفهد فى سرعة الوثوب ، فيقال : أوثب من فهد .

ولبشار أبيات أخرى فى حماد فى هذا المعنى يستحسن ألا تذكر[١] . كما أن فى أشعار لأبى نواس والرقاشى والجماز ما يدل على ذلك[٢] . يقول أبو نواس من جملة أبيات له :

فكان من وجدى به أنى ... أخطأت مجرى الرمح فى الطعن
وحس بالدسرة فى ظهره ... فقام كالحيران من جبن
حتى علانى وأنا تحته ... أدعو على الحرمات باللعن[٣]

وفى أخباره لابن منظور روايات تؤكد هذه التهمة بالنسبة لأبى نواس كالذى روى عن تعجبه — وهو كبير — بعد أن أصبح شاعراً مفلقاً كيف كان يفعل به والبة[٤] ، وكقصته هو وأبو القشير مع جارهما الذى كان يفعل بهما وكان شيخاً معروفاً باللواط[٥] ؛ ثم ما روى عنه مع بدر الجهنى البرّاء أيضاً[٦] ، وما اعترف به هو لما قدم مصر وجمّش غلاماً من أهلها فنفر منه وتنايه عليه فقال يخاطبه[٧] :

تتيه علينا أن رزقت ملاحةً ... فمهلا علينا بعض تيهك يا بدر
فقد طال ما كنا ملاحاً وربما ... صددنا وتهنا ثم غيّرنا الدهر
وكم من صديق قد تزهرت تحته ... فأعجبه منى التزهر والهصر
فطبت له نفساً بما لا يضرنى ... وبادرت إمكانى فعاد له الشكر

لتلك العادة السيئة خاف الخلفاء والأمراء على أبنائهم من أن يدب إليهم الفساد

---

(١) انظر : ديوان بشار ٣ / ٣٠٦ ، والأغانى ١٤ / ٣٣٠ .
(٢) انظر : ديوان أبى نواس (فاجنر) ٧٢ .
(٣) الفكاهة والائتناس ٤٧ .
(٤) ابن منظور ١ / ٩ .
(٥) المصدر نفسه ١ / ١٠ .
(٦) المصدر نفسه ١ / ٤٨ .
(٧) المصدر السابق ١ / ١٠ . وينسب البيتان الأولان للحسين بن الضحاك (انظر : أشعار الخليع ٥٣) .

عن طريق مؤدبيهم وندمائهم ممن عرفوا بها ؛ فسارعوا إلى إخراجهم وإبعادهم عنهم ، ثم أبى بعضهم منادمتهم . فالمهدى على إعجابه ببوالبة بن الحباب وشعره . امتنع عن منادمته لاستهتاره بهذه الفاحشة ولقوله :

قلت لساقينا على خلوة أدن كذا رأسك من راسى
وادن فضع صدرك لى ساعةً إنى امرؤٌ أنكح جُلاَّسى[1]

وفى الأغانى أن أبا جعفر المنصور كره منادمة مطيع بن إياس لابنه جعفر لما شُهِرَ به مطيع بين الناس ، وخشية إفساده[2] . ومن أمثلة ذلك ما يروى عن حماد عجرد من أنه لما اتصل بالربيع يؤدب ولده ، كتب إليه بشار بالأبيات التالية :

يا أبا الفضل لا تنم وقع الذئب فى الغنمْ
إن حماد عجـــرد إن رأى غفلة هجم
بين فخذيه حربة فى غلاف من الأدم
إن خلا البيت ساعة مجمج الميم بالقلم[3]

فلما قرأها الربيع قال : « صَيَّرنى حماد دريئة للشعراء ، أخرجوا عنى حماداً ، فأخرج »[4] كما أن العباس بن محمد الهاشمى أخرج حماداً أيضاً لما كتب إليه بشار بالأبيات السابقة ؛ وكان حماد يؤدب ولده . ويروى أن حماداً نفسه قال شعراً فى قطرب أحد مؤدبى ولد المهدى فقال المهدى : « انظروا ألا يكون هذا المؤدب لوطيًّا ، ثم قال : انفوه عن الدار ؛ فأخرج عنها وجىء بمؤدب غيره ، ووكل به تسعون خادماً يتناوبون ، يحفظون الصبى ، فخرج قطرب هارباً مما شهر به إلى عيسى ابن إدريس العجلى بن أبى دلف فأقام معه بالكَرَج إلى أن مات »[5] . وفى قطرب

---

(١) طبقات ابن المعتز ٨٩ والأغانى ١٦ / ١٤٨ .
(٢) الأغانى ١٣ / ٢٨٧ .
(٣) مجمج الكتاب : خلطه وأفسده . المجمجة تخليط الكتاب وإفساده بالقلم .
(٤) الأغانى ١٤ / ٣٣١ وشرح مقامات الحريرى ٢ / ٣٤٩ .
(٥) الأغانى ١٤ / ٣٣٢ وشرح مقامات الحريرى ٢ / ٣٤٩ .

قال أبو نواس[١] :

قل للأمين جزاك الله صالحةً ... لا يجمع الدهر بين السَّخْل والذيب

السخل غِرٌّ وهَم الذئب غَفْلته ... والذئب يعلم ما فى السخل من طيب

أسباب الشذوذ :

تقدم أن تسرب الفاحشة إلى العرب وانتشارها الواسع كان عن طريق الفرس بسبب ما شاع بين جندهم نتيجة اصطحابهم الغلمان وبعدهم عن نسائهم . لم يكتف أحد الباحثين المحدثين بهذا السبب المباشر، وإنما وسع الأمر مضيفاً إليه ما أشاعه الفرس فى الناس من حياة الترف والنعيم التى كانت سبباً فى كثير من أنواع الفساد والمجون حتى إنه قال : « ولو كانت الحياة الأموية امتدت وظلت السيادة العربية ما رأيت تشبيباً بغلمان . . ألم تر الشام ومصر والأندلس فى هذا العصر نفسه لم تنغمس فى الترف كما انغمست العراق وفارس ، ولم يكن أدبها أدباً ناعماً داعراً كالذى كان فى العراق؟»[٢] . أما عمر أبو النصر فيذهب بعيداً عندما يرى أن انتشار الفاحشة عن الفرس كان لأسباب سياسية ، فبعد أن انتصر العرب وفرضوا سلطانهم على الأمم المتحضرة — ومنها الفرس — خضعت هذه الأمم للسلطان الجديد وأسرّت غيظها وبغضها وفساد أخلاقها وانحلال نظمها الاجتماعية . حتى إذا كانت الثورة العباسية وانتصر المغلوبون وتوزع العرب فى الأمصار وانطووا على أنفسهم بعد أن كانت لهم الغلبة والسيطرة ، أظهرت تلك الأمم ما أسرّت وكظمت ، وجهرت بما كانت تجمجم به ولا تكاد تبين ، فكان من بينها هذه الفاحشة[٣] . أما محمد النويهى فيرى أنه من الخطأ والظلم معاً أن يعزى هذا الانحلال الخلقى إلى أمة واحدة هى الفرس وإنما يعزوه إلى كل الأمم التى جمعتها الحضارة الإسلامية، لأن الانحطاط إنما نشأ عن اختلاط هذه الأجناس بأديانها المختلفة وعاداتها ومقاييسها ونظمها المتباينة[٤] .

---

(١) ديوانه (آصاف) ١٧٥ وقد نسب البيتان لبشار بن برد فى كتاب الكناية والتعريض للثعالبى ص ٢٦ .

(٢) ضحى الإسلام ١ / ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) أبونواس فى مباذله / ١٠٨ — ١٠٩ . (٤) نفسية أبى نواس ١٠٥ .

ذاك هو السبب الرئيسى وما تفرع عنه ، وهناك أسباب أخر ساعدت على الشذوذ وشجعت الشعراء على الميل إلى الغلمان والتغزل فيهم . ولابد قبل ذكر الأسباب من الوقوف عندما يقوله علم النفس فى أسباب هذا الشذوذ . يمكن أن نستشف من الدراسات النفسية أن أسبابه عامة وخاصة[١] . فالعامة يمكن أن ترد فى الغالب إلى العوائق بين اختلاط الجنسين ، ولكن هذه العوائق لم تكن موجودة فى مجتمع القرن الثانى الذى كان يغص بالجوارى والإماء والقيان وكانت سبل اللقاء ميسّرة وخاصة فى بيوت القيان وغيرها من أماكن اللهو والدعارة . أما الأسباب الخاصة فمعظمها يتصل بالأسرة كالتشدد فى التربية أو التهاون فيها ، أو حاجة الأطفال إلى العطف فى حالة تفكك الأسرة وخاصة إذا كانوا يخضعون لأزواج أمهاتهم أو زوجات آبائهم . ويدخل فى عداد هذه الأسباب ظروف أخرى كالزمالة فى الحرب والحبس فى السجون والعمل فى بعض الأماكن العامة ، والاجتماع فى الأقسام الداخلية بالنسبة للطلاب والطالبات وغيرها[٢] . ولكن من العسير علينا تقصى هذه الأسباب والعوامل بالنسبة للقرن الثانى لكثرة الذين عرفوا بهذا الميل الشاذ . فمن الصعب إذن تقصى أخبار كل هؤلاء للتعرف على الأسباب التى دفعتهم إليه سواء كانوا فاعلين أم مفعولين ، ولو كان البحث فى شخصية واحدة لكان من اليسير جداً تفسير الظاهرة فى ضوء هذه العوامل بقدر الإمكان .

يصنف عالم النفس المعروف (فرويد) المرتكسين فى ثلاث فئات هى[٣] :

١ — مرتكسون ارتكاساً تاماً (Absolute Inverts) وهؤلاء تقتصر موضوعاتهم الجنسية على أفراد من الجنس نفسه ، أما أفراد الجنس المقابل فلا يكونون موضوع رغبتهم الجنسية أبداً .

٢ — مرتكسون ثنائيون (Amphigenic Inverts) وهؤلاء تكون موضوعاتهم الجنسية من جنسهم أو من الجنس المقابل .

٣ — مرتكسون بالعرَض (Contingent Inverts) ويكون ارتكاسهم نتيجة

---

(١) راجع فى هذا : أسس الصحة النفسية ، للقوصى ٤٥٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق وثلاث رسائل فى نظرية الجنس ٣٥ .

(٣) ثلاث رسائل فى نظرية الجنس ٢٩ — ٣٠ .

لصعوبة حصولهم على أى موضوع جنسى عادى فيلجأون إلى اتخاذه من أفراد جنسهم.

وإذا ما حاولنا فى ضوء هذه التقسيمات أن نصنف مرتكسى القرن الثانى من الشعراء وغير الشعراء لجعلناهم فى الفئة الثانية ذلك لأنهم جمعوا فى موضوعاتهم الجنسية بين الجنسين . وتغزل الشعراء منهم بالجوارى كما تغزلوا فى الغلمان وتهتكوا بالاثنين معاً . أما فيما يتعلق بالأسباب الأخرى فيمكن حصرها فيما يلى :

أولا :

كان لشيوع الجوارى فى مجتمع القرن الثانى وما كنّ يبذلنه من مجون وانحطاط ويشعنه بين الناس من فساد وإقبال على الفاحشة أثر سيئ أدى فى جملة ما أدى إلى اتجاه الناس إلى نوع آخر جديد فى مجتمع احتضن الحضارات وتفنن فى ضروب الترف الاجتماعى ، حتى أضحت المرأة فيه سلعة رخيصة وبضاعة مبتذلة يمكن الحصول عليها بلا جهد ومشقة ، مما أوجد نفوراً عند أصحاب المتع الرخيصة فراحوا يبحثون عن وسائل أخرى فوجدوا ضالتهم فى الغلمان ، ومن ثم راح الشعراء منهم يتغزلون فيهم ويذكرون قصصهم ووقائعهم معهم .

ثانيا :

ومما ساعد على هذا ونماه وجود الغلمان الملاح من مختلف الأجناس الذين بهروا الناس بجمالهم ، وكانت فرص الالتقاء بهم ميسرة ، فمنهم كان السقاة فى الحانات وخمارات الأديرة ، ومنهم كان خدم القصور والموسرين والأغنياء والبيوتات ، ومنهم من كان يقوم بخدمة الشعراء فى مجالسهم وبيوتهم ينادمونهم ويقومون بقضاء حوائجهم كالذى كان من أمر إسماعيل القراطيسى وغيره . وأشار الجاحظ إلى هذه الناحية على لسان صاحب الغلمان فى معرض رده على صاحب الجوارى ، فقال : « لو نظر كثيّر وجميل وعروة ومن سميت من نظرائهم إلى بعض خدم أهل عصرنا ممن قد اشترى بالمال العظيم فراهة وشطاطاً[1] ونقاء لون وحسن اعتدال وجودة قدّ وقوام؛ لنبذوا بُثينة وعزّة وعفراء من خالف وتركوهن بمزجر الكلاب »[2] .

---

(١) الشطاط (بكسر الشين وفتحها) : حسن القامة واعتدالها .

(٢) مفاخرة الجوارى والغلمان . بلا ٢٦ وهارون ١٠٥ .

وقبل الجاحظ أشار أبو نواس إلى هذه الناحية فقال[١] :

أما والله لا أشرًا حلفت به ولا بطرا
لو أن مرقِّشاً حيٌّ تعلق قلبه ذكرا
كأن ثيابه أطلعـ ـن من أزراه قمرا
ومرّ يريد ديوان الخ (م) راج مضمخاً عطرا
بوجه سابرى لو تصوب ماؤه قطرا
وقد خطّت حواضنه له من عنبر طررا
بعين خالط التشريب فى أجفانهـا حورا
يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

وإلى أكثر من هذا ذهب أبو نواس وقد بهره جمال الغلمان حتى عدّه سلاحاً فتاكاً فقال[٢] :

كأنّمَا وجهه والكأس إذ قربتْ من فيه بدر تدلّى عنه مصباح
مدجج بسلاح الحب ، يحمله طرف الجمال بسيف الطرف طماح
فالسيف مَضْحَكُهُ والقوس حاجبهُ والسهم عيناه ، والأشْعار أرْمَاح

ثالثاً :

ثمة سبب آخر يتعلق بالسبب المتقدم وهو كثرة الغلمان والخصيان فى بغداد وغيرها من المدن . كان الخليفة الأمين فى طليعة المشجعين على اقتناء الخصيان والانقطاع إليهم . ذكر المؤرخون أنه طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم ؛ فصيّرهم لخلوته ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه وفرض لهم الفروض ، ورفض النساء والحرائر حتى رمى بهن ، وقيلت فى ذلك الأشعار . فمما قيل[٣] :

ألا يا مزمن المثوى بطوس غريباً ما تفادى بالنفوس[٤]

(١) ديوانه (آصاف) ص ١٦٥ .
(٢) المصدر السابق ٤٢٧ .
(٣) الطبرى ٧ / ١٠١ — ١٠٢ وابن الأثير (طبعة ١٩٣٩) ٥ / ١٧٠ .
(٤) أراد بالمزمن المثوى بطوس : هارون الرشيد .

لقد أبقيت للخصيان بعلا تحَمل منهم شوْم البسوس...
وما للغانيات لديه حَظٌّ سوى التقطيب والوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس لعَزَّ على المقيم بدار طوس

كما أن أبا نواس نديم الأمين وخدينه لم يغفل الإشارة إلى دولة الخصيان التى أنشأها الأمين فى قصوره واختصها بما فى بيوت الأموال ، قال[١] :

احمدوا الله جميعاً يا جميع المسلمينا
ثم قولوا لا تملوا : ربنا أَبق الأَمينا
صيّر الخصيان حتى صير التعنين دينا
فاقتدى الناس جميعاً بأَمير المومنينـــا

فأبو نواس يشير فى أبياته إلى اقتداء الناس — وليس كل الناس — بالأمين ، ولا غرو ، فالناس على دين ملوكهم ، كما يقولون ، ولهذا الأمر دلالته ولعله يفسر اللجاجة فى الغزل بالمذكر عند الشاعرين أبى نواس والحسين بن الضحاك خاصة وهما أكثر الشعراء شعراً فيه حتى إن أحد الشعراء وهو أبو الشهاب لقبَ الحسينَ ابن الضحاك بشاعر الخصيان لما هجاه ، فقال[٢] :

أيا شاعر الخصيان حاولت خُطَّةً سبقت إليها وانكفأت سريعا
تحاول سبقى بالقريض سفاهةً لقد رُمْتَ جَهْلاً من حماى منيعا

وقبل الأمين كان أبوه الرشيد يتساهل فى هذا الأمر إن صح ما يرويه أبو الفرج من أن رجلاً كان يعاشر سعيد بن وهب فدخل عليه يوماً — وهو عنده — غلامان أمردان يحتكمان إليه فى أيهما أجمل وله أن يختاره ويقضى منه حاجته ، فحكم لأحدهما وقضى حاجته منه ، ثم مال على الآخر بعد أن أسكرهما ، ومن ثم فعل صاحبه فعلته .

---

(١) الطبرى ٧ / ١١٠ وديوانه (آصاف) ١٨٨ .
(٢) أشعار الخليع ٧٧ .

فقال سعيد :

رئمان جاءا فحكمانى لا حكم قاض ولا أمير
هذا كشمس الضحى جمالاً وذا كبدر الدُّجى المنير
وفضل هذا كذا على ذا فضل خميس على عشير
قالا : أشرْ بيننا برأى ونجعل الفضل للمشير
تباذلا ثم قمت حتى أخذت فضلى من الكبير
وكان عيباً بأن أرانى أحرم حظى من الصغير
فكان منى ومن قرينى إليهما وثبة المغير
فمن رأى حاكماً كحكمى أعظم جوراً بلا نكير

شاعت هذه الأبيات حتى بلغت الرشيد فداعبه واستنشده إياها فتلكأ ، فقال له : أنشد ولا بأس عليك ، ولما أنشد قال له الرشيد : ويلك أخذت الكبير سنّاً أو قدراً ؟ قال : بل الكبير قدراً ، فقال الرشيد : لو قلت غير هذا سقطت عندى ، واستخففت بك ، فوصله بعد ذلك[1] . والغريب فى الأمر أنه كيف يسمع الرشيد مثل هذا الشعر ويسكت عليه بينما وجدنا المهدى قبله ينهى بشاراً عن الغزل الفاحش فى النساء ، ثم كيف نوفق بين هذا وبين ما قيل عن الرشيد وتحدثنا عنه فى الفصل الثانى من أنه كان لا يسمع من الشعر ما فيه رفث ولا هزل وأنه كاد يأمر بأبى نواس لما انتقل إلى الخمرة فى قصيدة مدحه فيها[2]. وإذا صح ما يرويه ابن منظور من رواية تتعلق بالأمين أنه كان ذا ميل إلى الغلمان وأن أبا نواس نفسه قد ضبطه متلبساً بهذا الإثم وقال فى ذلك بيتين من الشعر[3] ، يكون الأمين — بالإضافة إلى ما تقدم من اهتمامه بالخصيان — من العوامل الفعالة التى شجعت

---

(١) الأغانى (ساسى) ٢١ / ٧١ .
(٢) انظر : « مقدمات جديدة » . الفصل الثانى من هذا الكتاب .
(٣) ابن منظور ١ / ١٠٩ .

الشعراء على الاستمرار فى هذا اللون دون حياء أو خجل وبلا تحرج أو احتشام، وقد تفسر كثرة أشعار شاعريه ونديميه أبى نواس والخليع فى هذا الضرب أنها كانت إرضاء للخليفة وإشباعاً لرغبته إن صح أنه كان مرتكسا .

رابعاً :

قد يكون من الأسباب ما نجده فى شعر أبى نواس بخاصة من مفاضلة بين النساء والغلمان وهو ما سجل بعضه الجاحظ فى رسالته[١] . فالغلمان فى نظره أخف عبئا وأهون أمراً من النساء بالنسبة لعملية الاتصال الجنسى ، لا نستغرب هذا إذا ما عرفنا أن الوسائل الطبية الحديثة التى تستخدم الآن فى منع الحمل أو الحد منه وغيرها لم تكن معروفة فى عصرهم، وقد أشار الجاحظ إلى شىء من هذا لما قال: « وقد تمكنت تلك الشهوة منهم مع الذى لهم فيه عند أنفسهم من خفة المؤونة والأمن من السلطان ومن الحبل وغير ذلك من المرافق . . .[٢] » . ولكن مما يقلل من قيمة هذا الرأى أن المجون كان على قدم وساق، وكانت للدعارة بيوت خاصة عرف أمرها واشتهرت صاحباتها . ولأبى نواس أقوال تدل على ما ذهبنا إليه ، قال[٣]:

وشاطر ماجن أخى خنثٍ　　　مستعطف كالقضيب فى ميله
أيسر ما فيه من فضائله　　　(أَمْنُك من طمثه ومن حَبَله)

وقال[٤] :

كم من أخٍ جاد بالوصال فما　　　(أحبل من وَصْلِنا ولم يَلِدِ)

وقال[٥] :

أتجعل من تحيض بكل شهر　　　وينبح جروها فى كُلِّ عام

(١) انظر الصفحات ٢٥ ، ٣٩ من مفاخرة الجوارى والغلمان بتحقيق بلاو ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٣ بتحقيق عبد السلام هارون .
(٢) ثمار القلوب ٤٣٩ .
(٣) ديوانه (آصاف) ٣٢٢ .
(٤) ديوانه (آصاف) ٣٥٢ .
(٥) الفكاهة والائتناس ٦٢ .

كمن ألقاه فى سرّ وجَهْرٍ وأطمع منه فى رد السلام
أكلمه بما أهوى صريحاً بلا خوف المؤذن والإمام

لعل مرد هذا عنده ولعه الشديد بالغلمان الذى ما انفك يعلن عنه فى كل مناسبة ، قال[1] :

أنا رأس فى الضلال أنا مأوى كل ضال
أنا لا أصبو لخود أنا صَبٌّ بالغزال

وقال[2] :

يا من يقول : الغوانى أحلى جَنًى والتزاما
خذ النساء ودع لى مما يلدن غلاما
شَرْطى المراهق منهم قد قارب الاحتلاما

وقد لصق تعشق الغلمان بأبى نواس إلى حد بعيد جداً حتى إن الناس فى عصره كما يذكر أبو هفان كانوا يستغربون إذا ما سمعوا منه ما يدل على ميله ووَجده بالنساء ، فقد نقل عن سليمان بن أبى سهل أن أبا نواس شكا فى مجلس من مجالس لهوه معه وَجْدَهُ بجارية فقال له : «ويحك قد انتكست وصرت تتعشق النساء أيضاً؟!»[3] ؛ ونجد أبا هفان نفسه يروى أخباراً يستدل منها على رغبة أبى نواس عن النساء وكرهه الميل إليهن ، روى أن أقاربه أقنعوه فى الزواج من امرأة جميلة فلما دخل عليها أعرض عنها وخرج إلى غلمان له كانوا يتعهدونه فخلابهم وقال :

لا أبتغى بالطمث مطمومة ولا أبيع الظبى بالأرنب
لا أدْخِل الجحر يدى طائعاً أخشى من الحية والعقرب[4]

---

(١) المصدر نفسه ٤٢ .
(٢) المصدر نفسه ٦٣ ثم انظر ٦٤ وديوانه (آصاف) ٣٤٢ كذلك .
(٣) أبو هفان ٤٠ .
(٤) أبو هفان ٢٧ وابن منظور ١ / ١٠٦ — ١٠٧ .

تلك هى الأسباب التى دعت الشعراء فى القرن الثانى إلى التغزل بالمذكر والاتجاه نحو الغلمان ، ولست أرى ما يراه الدكتور مصطفى هدارة من أن شعر التغزل بالمذكر لم يكن إلا صدى لما اطلع عليه شعراء القرن الثانى وأواخر الأول من الشعر الفارسى ، فهو يستبعد أن يقدم هؤلاء الشعراء على التعبير عن هذه الموضوعات لمجرد أنها بدأت تشيع فى عصرهم استجابة للتأثير الفارسى لأنهم لو فعلوا ذلك لصادفوا نفوراً من الذوق العام والعرف السائد، ولكن وجود التعبير عن هذه الموضوعات فى الشعر الفارسى القديم وقراءة الناس له سهّل على الشعراء العرب الخوض فيه بلا خوف من استنكار المجتمع (١) . ولكن أين شعر التغزل الفارسى فى المذكر الذى تأثر به شعراء العرب وقرأه الناس ؟ ومن قال إن شعر التغزل بالمذكر لم يصادف نفوراً من الناس واحتجاجاً ؟ ! . روى صاحب الموشى الأبيات التالية لبعض الأدباء وهى تدل دلالة واضحة على نفوره واستيائه وحملته على شعراء الغزل بالمذكر ، قال (٢) :

فلو أنى رأيت الناس يومـاً ... ووليت الحكومة والخصاما
لقرّت عين من يهوى الجوارى ... وعاقبت الذى يهوى الغلاما
سألتك أيما أحلى حديثاً ... وأطيب حين تعشقه التزاما
أجارية منعمـة رداح ... تريدك للغرام بها غراماً
أو امرد منتن الإبطين فيه ... له رُمْح كرمحك حين قاما
يريدك للدراهم لا لِحُبٍّ ... وتلك تذوب من كَلَفٍ سقاما

يقوى ما نذهب إليه أن ساعد الغزل الشاذ لم يشتد إلا على أيدى أبى نواس والخليع وفى أيام الأمين بخاصة ، أما فيما قبل فقد كان

---

(١) اتجاهات الشعر فى القرن الثانى ٩٣ – ٩٤ .

(٢) الموشى ١٣٣ – ١٣٤ .

الشعراء ممن قالوا فيه مقلين ، ولعل هذه القلة ناتجة عن النفور والخوف من الذوق العام ، وقد تقدم فى الفصل الثانى أن بعض القصائد فى مدح الخلفاء قد استهلت بالغزل فى المذكر وهو ما عللته بتساهل الممدوحين ولين جانبهم[١] .

بداية التغزل فى المذكر :

تقدم أن ظاهرة الميل إلى الغلمان وجدت فى حالات فردية فى العصرين الراشدى والأموى ثم اتسعت فيما بعد فى العصر العباسى منذ منتصف القرن الثانى ، ومع اتساع هذه الظاهرة وتبعاً لها نشأ الغزل فى المذكر .

وأبو نواس وإن كان أكثرهم شعراً وتفنناً فيه إلا أنه قد سبق إليه بما قاله بعض الشعراء ممن كانوا قبله من مخضرمى الدولتين ، وفى مقدمتهم كان مطيع بن إياس وحماد عجرد ويحيى بن زياد الذين كانوا يتهتكون فى تعشق الغلمان ولعلهم أقدم من فعل ذلك من الشعراء[٢] ، ومنهم والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس الذى يقول فيه الدكتور شوقى ضيف : « إنه هو الذى يتحمل وزر إفساد أبى نواس ، بل هو فى رأينا الذى يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذى يخنق كرامة الشباب والرجال خنقاً »[٣] .

شعراء الغزل فى المذكر :

لم ينقطع شعراء الغزل فى المذكر انقطاعاً تاماً إليه ، إنما نجد لبعضهم غزلاً فى المؤنث أيضاً ، ولكن هذا لا يمنع أن يشكل هذا الغزل اتجاهاً قائماً بذاته ولو أن شعراءه أقل عدداً من شعراء الاتجاهات الأخرى ثم إن أشعارهم التى وصلت إلينا قليلة إذا ما استثنينا أبا نواس والحسين بن الضحاك . وربما يعود ذلك إلى ضياع أكثرها أو إلى خوف الشعراء من الإكثار من هذا الغزل خشية الرأى العام

---

(١) انظر : « مقدمات جديدة » فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ / ٨٥ و ٩٨ .

(٣) العصر العباسى الأول ٧٣ .

الذى لم يتعود مثله من قبل ، أكثر ما يصدق هذا على مخضرمى الدولتين ممن قالوا فيه .

من شعرائه والبة بن الحباب الكرفى أستاذ أبى نواس . كان ظريفاً ، غزلا ، وصّافاً للشراب والغلمان المرد[١] . يقول ابن المعتز : « ولوالبة فى المجون والفتك والخلاعة ما ليس لأحد ، وإنما أخذ أبو نواس ذلك عنه »[٢] . أعلن والبة عن مذهبه صراحة فقال[٣] :

ما العيش إلا فى المدا م وفى اللزام وفى القُبَلْ
وإدارة الظبى الغري ر تسومه مالا يَحِلْ

وقال[٤] :

شبيه الفاتك العيار مثلى نُعيمٌ حين يشرب بالبواطى
يعاطينا الزجاجة أريحىٌّ رخيم الدل بورك من معاطى
أقول له على طرب ألطنى ولو بمؤاجر علج بناطى
فإن الخمر ليس تطيب إلا على وضر الجنابة باللواط

أما حماد عجرد الكرفى فقد كان ماجناً ظريفاً كما يقول ياقوت وكانت بينه وبين بشار ومطيع أهاج كثيرة فيها من السخف والمجون الشيء الكثير[٥] . كان سبب الهجاء بينه وبين مطيع ، أن حماداً كان يهوى غلاماً جميلا كنيته أبو بشر من أهل البصرة ، فاندس له مطيع ولم يزل يحتال عليه حتى وطئه فغضب حماد ونشب بينهما الهجاء[٦] . وفى أبى بشر قال حماد[٧] :

---

(١) الأغانى ١٦ / ١٤٨ .
(٢) طبقات ابن المعتز ٨٨ .
(٣) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٠ .
(٤) طبقات ابن المعتز ٨٨ والأغانى ١٦ / ١٥١ مع اختلاف فى الأبيات .
(٥) معجم الأدباء ١٠ / ٢٥٠ — ٢٥٤ .
(٦) الأغانى ١٤ / ٣٦٧ و ٣٦٨ .
(٧) المصدر السابق ١٤ / ٣٦٢ — ٣٦٣ .

خليلى لا يفى أبدا يمنينى غدًا فغدا
وبعد غد وبعد غد كذا لا ينقضى أبدا
له جمْر على كبدى إذا حركته اتقدا

وغزل حماد بأبى بشر يظهر حماداً بصورة المحب المواله الذى لو تغزل بامرأة يحبها حبًّا جمًّا لما قال فيها مثل هذا الشعر . فهو المبرح والمشغول الجوانح ، وأن داءه ودواءه عند غلامه ، قال[1] :

أخى كُفَّ عن لومى فإنك لا تدرى بما فعل الحب المبرِّح فى صدرى
أخى أنت تلحانى وقلبك فارغ وقلبى مشغول الجوانح بالفكر
أخى إن دائى ليس عندى دواؤه ولكن دوائى عند قلب أبى بشر
دوائى ودائى عند من لو رأيته يقلب عينيه لأقصرت عن زجرى
فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى لأقصرت عن لومى وأطنبت فى عذرى
ولكن بلائى منك أنك ناصح وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

وأما مطيع بن إياس وهو من ظرفاء أهل الكوفة ومجانهم فكان من زمرة حماد عجرد ويحيى بن زياد وعلى بن الخليل الكوفى الذين كانوا طبقة واحدة يتصاحبون على المجون والخلاعة والشراب[2] . شعر مطيع فى المذكر قليل ومع هذا فإن أحمد السقاف يعده عميد المدرسة النواسية لأنه — فى رأيه — أول من تماجن فى شعره وابتدع التغزل بالمذكر[3] . فمن شعره الذى يدل على مجونه ومجون زمرته من مجان الكوفة وغيرهم مقطوعته التى أثبتت فيما تقدم .

ومنهم سعيد بن وهب الشاعر البصرى الذى كان من مصطنعى البرامكة والمتقدمين عندهم بعد أن انتقل إلى بغداد وسكنها . كان أكثر شعره فى الغزل والتشبيب بالمذكر وكان مشغوفاً بالغلمان والشراب . لكنه رجع عن غيه وتماديه

(١) المصدر السابق ١٤ / ٣٦٢ .
(٢) انظر : معجم الشعراء / ٤٥٤ و ٤٥٥ و ٤٨٦ و ١٣٦ .
(٣) الأوراق . لأحمد السقاف ص ١٥٢ .

فى كبره فتاب وتنسك وحج راجلاً ومات على توبة وإقلاع ومذهب جميل[١] . أما شعره الذى وصل إلينا فقليل، وقد تعود قلته إلى ما أتلفه منه بعد أن عاد إلى حجاه ، يؤكد هذا ما يقوله أبو الفرج : « فكان إذا وجد شيئاً من شعره خرقه وأحرقه وكان امرأ صدق . كثير الصلاة ، يزكى فى كل سنة عن جميع ما عنده »[٢] يقال إنه كان قبل تنسكه يتعشق غلاماً يتشطر اسمه سعيد فبلغه أنه توعده أن يجرحه فقال[٣] :

من عذيرى من سمىّ من عذيرى من سعيد
أنا باللحم أجاه ويجانى بالحديد

وقد كانت بين سعيد وبين أبى الصلت الشاعر مهاجاة ، ولأبى الصلت فيه أبيات تكشف عن مذهب سعيد واتجاهه نحو الغلمان . قال أبو الصلت[٤] :

قولا لفضل يا ابن الألى ملكوا (م) الأرض على رغم من ينازعهـا
بِابْنٍ وهب داءٌ يعالجه أُدْمُ ظباء نُجل مدامعها
وهو بروس الظباء يهتف فى النا س وإضماره أكارعهـا

بقيت طائفة من شعراء هذا الغزل المقلين الذين استطعنا أن نعثر عليهم وعلى بعض أشعارهم فيما وقع إلينا من المصادر القديمة . من هؤلاء إسماعيل القراطيسى الكوفى الذى كان بيته — كما تقدم — مألفاً لأمثاله من المجان[٥] . ومنهم يوسف ابن الحجاج وكان كما يقول أبو الفرج فاسقاً باللواط . من أقواله[٦] :

لا تبخلن على النديـ م بردف ذى كشح هضم

---

(١) الأغانى (ساسى) ٢١ / ٦٩ وتاريخ بغداد ٩ / ٧٣ .
(٢) الأغانى (ساسى) ٢١ / ٦٩ .
(٣) المصدر السابق ٢١ / ٧٠ .
(٤) طبقات ابن المعتز / ٢٦٠ .
(٥) انظر : ص ٢٠٠ من هذا الكتاب .
(٦) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ٩٤ .

يعلو وينظر حسرة نظر الحمار إلى القضيم
وإذا فرغت فلا تَقُمْ حتى تصوت بالنديم
فإذا أجاب فقل هلم إلى شهادة ذى الغريم
واتبع للذتك الهوى ودع الملامة للمليم

أورد له أبو الفرج مقطوعتين أخريين يبدو فيهما وكأنه متخصص فى هذا الفن الدنىء ، يشرح بعض متطلباته وأغراضه الدنيئة بكل صراحة[١] .

ومنهم عمرو الخاركى وهو بصرى أزدى ، كان ماجناً سفيهاً ، أنشد له الجاحظ ودعبل[٢] :

إذا لام على المُرْد نصيح زادنى حرصاً
ولا والله ما أقلع ما عُمِّرت أو أُخصى

ومنهم عبدالله بن أيوب التيمى الذى كان يهوى غلاماً وكان الغلام يهوى جارية من جوارى القيان فكان مشغولاً بها عنه وكانت القينة تهوى الغلام ولا تفارقه . فقال التيمى[٣] :

ويلى على أغيد ممكور وساحر ليس بمسحور
تؤثره الحور علينا كما نؤثره نحن على الحور
علق من علق فيه هوى منتظم الألفة مغمور
وكل من يهواه فى أمره مقلب صفقة مقمور

ومنهم عبد الله بن موسى الهادى ، يروى أن خادماً لصالح بن الرشيد مر به فسأله عن اسمه ، فقال له : اسمى « لا تسل » فأعجبه حسنه وحسن منطقه وأنشد فيه[٤] :

---

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٩٥ ثم انظر: مفاخرة الجوارى والغلمان بلا ٣٨-٣٩ وهارون ١١٢.
(٢) الحيوان ١ / ١٧٦ والورقة / ٧٩ مع اختلاف فى البيت الثانى .
(٣) الأغانى (ساسى) ١٨ / ١٢٢ .
(٤) الأغانى ١٠ / ١٩٥ .

وشادن مرّ بنـــا يجرح باللحظ المُقَلْ
مظلوم خصر ظالم منه إذا يمشى الكفل
اعتدلت قامتـــه واللحظ منه ما عدل
بدر تراه أبدًا طالِعَ سَعْدٍ ما أفل
سألته عن اسمه فقال لى : اسمى « لا تَسَلْ »
وأطْلعت فى وجنتيـ ـهِ وردتان من خجل
فقلت : ما أخطأ من سماك ، بل قال المَثل
لا تسألن عن شادنٍ فاق جمالا وكَمُل

ومنهم محمد بن أبى أمية الكاتب ، من ظرفاء كتاب البغداديين وشعرائهم ، بصرى الأصل ومن أسرة عرفت بالشعر وهو أشهرهم ذكراً وأكثرهم شعراً، ولكن شعره فى المذكر قليل . روى أنه خرج إلى ناحية الجسر ببغداد فرأى فتى من أولاد الكتاب جميلا ، فمازحه فغضب وهدده . فقال فيه[1] :

دون باب الجسر دار لهوى لا أسميه ومن شاء فطن
قال كالمازح واستعلمنى : أنت صب عاشق لى أو لمن ؟!
قلت : سل قلبك يخبرك به فتحامى بعد ما كان مَجَنْ
حسن ذا الوجه لا يسلمنى أبدًا منه إلى غير حسن

ومنهم أبو بحر عبد الرحمن بن أبى الهداهد . روى ابن منظور أنه كان « شاعراً مجيداً وكان لا يكاد يقول شيئاً إلا نسب لأبى نواس ، وكذلك الحسين ابن الضحاك المعروف بالخليع ، وقد غلب على كثير من شعرهما »[2]. له قصيدة فى غلام يصفه ويذكر محاسنه ثم يذكر معانقته له ومطارحته إياه مما نسب لأبى نواس[3].

أما أكبر ممثلين لهذا الاتجاه فأبو نواس والحسين الخليع وعليهما سيكون مدار أكثر ما تبقى من هذا الفصل!.

(١) تاريخ بغداد ٢ / ٨٥ .
(٢) ابن منظور ١ / ٧٥ .
(٣) ابن منظور ١ / ٧٦ .

اتجاهات الغزل فى المذكر :

أولا : الغزل بالسقاة من الغلمان :

كثرت فى هذا القرن الحانات ،وكان أصحابها من غير المسلمين . وكانت تقوم فى ضواحى المدن والأماكن الجميلة بعيدة عن عيون السلطة ، وكانت مألفاً للمجان وأصحاب اللذة ، يقوم برعايتها وإدارة شئونها جماعة من اليهود والمسيحيين وغيرهم ، يستدل على هذا من شعر أبى نواس وخمرياته ، كقوله[1] :

الشرب فى ظُلَّةٍ خمار عندى من اللذات يا جارى
لا سيما عند يهودية حوراء مثل القمر السارى

وكقوله[2] :

وفتيان صدق قدصرفت مطيهم إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلماحكى الزُّنارأن ليس مسلماً ظننت به خيرًا ، فظن بنا شرا
فقلنا :على ين المسيح بن مريم فأَعرض مزورًّا وقال لنا : هجرا
ولكن يهودى يحبك ظاهرا ويضمر فى المكنون منه لك الغدرا

وكقوله[3] :

فلما حللناها نزلنا بأَشمط كريم المحيّا ، ظاهر الشرك كافر
له دين قسيس، وتدبير كاتب وإطراق جبار، وألفاظ شاعر

كانت أكثر الحانات مهيأة لأنواع الابتذال والفحش والتهتك بحيث يجد أصحاب اللذة ما تشرئب إليه نفوسهم ، لذلك حرص أصحابها ألا تخلو من الساقطات

---

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ٢٧٣ .
(٣) المصدر نفسه ٢٨١ ثم انظر ٢٧٦ أيضاً .

والغلمان إلى جانب السقاة لتحقيق مطالب «زبائنهم» ، كما لم تكن تخلو من جوقات الغناء والزمر لتلطيف الأجواء على الرواد ، مثال ذلك ما أورده أبو هفان فى خبر أبى نواس مع ابن فورك أحد غلمانه الذى كان يأتيه أنى شاء وكان يصطحبه معه إلى الحانات وربما امتد تطرحه إلى أيام ، ففى إحدى المرات تغيب أبو نواس معه مدة ، فراح جماعة من أصحابه يبحثون عنه فوجدوه فى خمارة ، وبعد أن عنفوه عز عليه أن يغادروا المكان دون أن يشربوا ويلذوا فأقنعهم أبو نواس بذلك وقال لصاحب الخمارة : « . . . فاطلب لنا غلاماً مليحاً ، وقد سمعت البارحة غناء وزمراً فأحضرناه . فخرج الخمار فما كان إلا ساعة حتى جاءنا بغلام لم نر مثله قط وكرّاعات "ساقطات" كن هناك من بغداد فأقمت بها يوماً وغده واليوم الثالث ثم أجمعنا على الانصراف عنها »[1] . ومن تلك الحانات حانة زارها أبو نواس ليلا مع نفر من عصابته فنبهوا صاحبها فقدمت لهم ما أرادوا من خمر وغلمان ، قال[2] : .

وخمارة نبهتها بعد هجعة ... وقد غابت الجوزاء وانحدر النسر
فقالت : من الطرّاق ؟ قلنا عصابة ... خفاف الأوادى يبتغى لهم خمر
ولا بد أن يزنوا ، فقالت : أو الفدا ... بأبلج كالدينار فى طرفه فتر
فقلنا لها : هاته ، وما إن لمثلنا ... ـ فديناك بالآباء ـ عن مثله صبر
فجاءت به كالغصن يهتز ردفه ... تخال به سحراً وليس به سحر
له شبه بالبدر ليلة تمه ... مهفهف أعلى الكشح فى ثغره أشر
فقمنا إليه واحداً بعد واحد ... نجرر أذيال الفسوق ولا فخر

ومنها حانة قطربل[3] التى كان أبو نواس لا يحب أن يذهب إلا إليها شوقاً لشرابها وغلمانها . روى ابن فضل الله العمرى ، قال : « حكى أبو الشبل البرجمى

---

(١) أبوهفان / ٥٧ .
(٢) ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٧٣ ثم انظر ٣٤٧ أيضاً .
(٣) قطربل : اسم قرية كانت بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر ، وكانت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين (معجم البلدان) .

قال : اجتمعت بأبي نواس في النوبختية ، فسلمت عليه وسألته عن خبره وتحدثنا طويلا . ثم قال : أتساعدني حتى نمضي إلى موضع طيب ؟ قلت : أين هو : قال : بقطربل . فقلت : ضاقت الدنيا حتى نسافر ؟ فقال لي : إن هناك خماراً ظريفاً لبقاً ، مساعداً ، عنده شراب عتيق وغلمان صباح »[١] .

كان أصحاب الحانات يختارون السقاة من أجمل الغلمان وأرقهم وكأنهم كانوا يلبسونهم ألبسة متماثلة كالذي نشاهده في أيامنا هذه من ألبسة السقاة في الحانات ودور اللهو ، وكان أكثرهم من المسيحيين كما يظهر من شعر أبي نواس ، قال[٢] :

وربّ مخضب الأطراف رخصٍ مليح الدل ، ذي وجه صبيح
ظفرت به ونجم الصبح بادٍ عبادىّ على دين المسيح

وقال[٣] :

يسقيكها من بني العبّاد رشأً منتسب عيدُه إلى الأحدِ

فلا عجب والحال هذه أن يفتن أولئك الغلمان الشعراء فيميلوا إليهم ويتغزلوا فيهم مشيدين بجالهم معددين لأوصافهم ، ولا مانع من أن يدبروا إليهم إذا ما سنحت الفرصة بعد أن يتعتعهم السكر ويأخذ منهم كل مأخذ فيرتكبوا الفاحشة ويقضوا الوطر . وكان السقاة يتزينون بأحسن ما عندهم ويتعطرون بأرقى ما لديهم من أنواع الطيب ليظهروا بأجمل حلة وأحسن مظهر حتى إن الرواد كانوا يتنافسون عليهم ، يقول الحسين بن الضحاك[٤] :

يحث كؤوسهم مخطَفٌ تجاذب أردافه المئزرا
ترجّل بالبان حتى إذا أدار غدائره وفّرا[٥]

---

(١) مسالك الأبصار ٣٩٢ .
(٢) ديوان أبي نواس (آصاف) ٢٦٣ .
(٣) ديوان أبي نواس (آصاف) ٢٦٥ .
(٤) أشعار الخليع ٦٥ — ٦٦ .
(٥) رجل الشعر : سرحه . الوفرة : ماسال من الشعر على الأذنين .

وفضّض في الجلنار البها ر والآبنوسة والعنبرا
فلما تمازج ما شذّرت مقاريضُ أطرافه شذّرا
فكل ينافسُ في بِره ليفعل في ذاته المُنْكرا

ومن الطريف أن نشير إلى أن وصف الساقى موجود فى شعر الخمر الجاهلى — ولكن فى ندرة — فالشاعر الأسود بن يعفر عرض لمجلس الخمر ووصف الساقى فقال :

ولقد لهوت وللشباب بشاشة بسلافه مزجتْ بماء غوادِ
من خمر ذى بذخ أغنّ مُنطَّق وافى بها كدراهم الأسجاد
يسعى بها ذو تَوْمتين مقرطق قنأت أنامله من الفرصاد[1]

يعلق جميل سعيد على هذه الأبيات فيقول : « وهذا الساقى الذى وصفه الأسود ابن يعفر يذكر بسقاة أبى نواس ، فهو قد خضب كفه ، وربما كانت الحناء خضابه ، وعلق تومتين فى أذنيه »[2] .

فلا بدع أن يتغزل شعراء القرن الثانى فى السقاة ، فأبو نواس يتحدث عن أحدهم ويصفه بأنه خنث ذو غنج ، يسلب الألباب بأردافه وسحر عينيه بعد أن هيأ نفسه فكسر شعره واوات ونضّده فوق الجبين ، قال[3] :

يسعى بها خنث فى خلقه دمث يستأثر العين فى مستدرج الرائى
مقرط ، وافى الأرداف : ذو غنج كأن فى راحتيه وسم حِنّاء
قد كَسر الشعر واوات ونضّدَه فوق الجبين ورد الصُّدغ بالفاء
عيناه تقسم داءً فى محاجرها وربما نفعت فى صولة الداء

(١) التومة : الحبة من الدر وقيل اللؤلؤة ، وقيل القرط ، وقيل القرط فيه حبة (اللسان . مادة توم) قنأ : قنأت اللحية من الخضاب : اسودت . وقنأ الشيء : اشتدت حمرته . الفرصاد : لها معان كثيرة وتعنى هنا الحمرة (انظر : اللسان — مادة فرصد) .
(٢) تطور الخمريات فى الشعر العربى ٤٤ — ٤٥ .
(٣) ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٣٧ .

ثم يتحدث عن غلام آخر من غلمان صاحبة حانة شمطاء فيقول(١) :

وعندها قمر ، فى طرفه حور فى دله خفر ، فى حسن تمثال
مفاكه ، عبث ، مقالهُ أنِث فى طرفه نفث ، قتّال أبطال
يسقيك من يده خمرًا ، وناظره سحرًا ومن فمه سكرًا على حال

وإلى مثل هذا أشار الحسين بن الضحاك فقال(٢) :

يسقيك من طرفه ومن يده سقى لطيف مُجرّب داهى
كأساً فكأساً كأن شاربها حيران بين الذّكور والساهى

ولمسلم بن الوليد أبيات فى ساق وهى الأبيات اليتيمة فى ديوانه لم نعثر على غيرها ، وهذا يؤكد ما قاله سامى الدهان من أن أخباره كلها لم تحو حكاية واحدة تدل على شذوذه وعكوفه على الغلمان على معاصرته للمجان الذين ملأوا دنيا الأدب عربدة ومجوناً وخلاعة شاذة(٣) . ومناسبة أبياته أنه وقف بباب محمد ابن منصور فاستسقى فأمر محمد وصيفاً له فأخرج إليه خمراً فى كأس مذهبة . فلما نظر إليها فى راحته قال(٤) :

ذهبٌ فى ذهب را ح بها غُصين لجين
فأتـــت قـــرة عين من يَدَى قُرَّةِ عين
قمر يحمل شمسا مرحباً بالقمـــرين
لا جرى بينى ولا بيـ (م) نهما طائر بَيْن
وبقينـــا ما بقينـــا أبـــدًا ملتقيـــين
فى غبوق وصبوح لم نبْع نقدًا بدَيْن

ركز الشعراء فى غزلهم فى السقاة على أشياء معينة . شكلهم العام وملابسهم ،

---

(١) المصدر السابق ٣١٥ ثم انظر / ٢١٩ أيضاً .
(٢) أشعار الخليع ١٢٣ .
(٣) شرح ديوان مسلم ، مقدمة الدهان م ١٩ .
(٤) ذيل ديوان مسلم للدهان ٣٤٤ .

ثم ما كانوا يقومون به من عقربة الأصداغ ولفها ، ثم وصفوا محاسنهم فأسبغوا عليهم أوصافاً جمة : فهم الأقمار تارة ، والغزلان طوراً ، حمر وجناتهم كالتفاح ، جميلة وجوههم كالبدور ، قال أبو نواس[١] :

يسعى بها كالقضيب منجدل — زَرْفن أصداغه ولواها
كأنما وجنتاه حين حسا — من يده الخمر ثم ثناها
تفاحة فى يمين ذى كلف — طيّبها جاهداً وطرّاها

وربما امتد بهم الأمر إلى الغزل فى الخمارين أنفسهم كالذى عند الحسين ابن الضحاك يتغزل فى خمّار (خمر نَصْر) بسامراء فيقول[٢] :

خمار حانتها إن زرت حانته — أذكى مجامرها بالعود والغار
يهتز كالغصن فى سُلْب مسوّدة — كأن دارسها جسم من القار[٣]
تلهيك ريقته عن طيب خمرته — سقيا لذاك جنى من ريق خمار
أغرى القلوب به ألحاظ ساجية — مَرْهاء تطرف عن أجفان سحّار[٤]

يتضح من شعرهم أنهم كانوا يفضلون صغار السقاة وربما يعود ذلك إلى أن الغلام كلما كان صغيراً كان جماله وبهاؤه أحسن ، ثم إنه فى مثل هذه السن يكون خلواً من اللحية والشارب ، وقد يكون لصغر سنه فريسة سهلة لتحقيق رغباتهم وميولهم ، فهذا أبو نواس يتحدث عن الصفات التى كان يجب أن تتوفر فى ساقيه فيقول[٥] :

أشتهى السَّاقِيَيْنِ لكن قلبىّ — مستهام بأصغر السَّاقِيَيْن

---

(١) ديوان (آصاف) ٢٤١ ثم انظر مثل هذه الأوصاف : ديوانه ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ .
(٢) أشعار الخليع ٥٩ .
(٣) السلب (بضمتين) : جمع سلاب وهى ثياب المآتم السود وسكنت اللام تخفيفاً .
(٤) المرهاء : غير المكحلة .
(٥) ديوانه (آصاف) ٢٥٣ .

ليس باللابس القميص،ولكن ذى القباء المعقرب الصدغين
الذى بالجمال زينه الله وحُسْن الجبين والحاجبين
يتلاهى إذا استحث لِشُرْبٍ فى سكون ويمسح العارضين
خَرْ سَنوه ، وما درى ما خراسا ن يلبس القباء والمئزرين
هم يجورون بالمزاح عليه وهو يحكى بعدله العمرين

ثم إنه فى خمرية أخرى يتحدث عن ساقيه ويقول إنه مكتمل الحسن من قرنه إلى قدميه وهو محتلم أو دوين المحتلم ، خداه أبيضان تشوبهما حمرة ، أما صدغاه فأسودان وكأنهما خطا بقلم أسود على وجنتيه ثم هو فى مجموعه درة محبرة ، يقول[1] :

من كف ظبى أغنَّ ، ذى غنج أكمل من قرنه إلى القدم
أغيد ، مرتجة روادفه محتلم ، أو دوين محتلم
كأن خديه فى بياضهما قد أُشْرِبَتْ وجنتاهما بدم
كأن صدغيه فى سوادهما خُطَّا على الوجنتين بالقلم
كأنه درة محبَّرة علَّقها راهب على صنم
فذاك شَرْطى إذا خلوت به محتشماً رقْبةً من الحشم

أما الحسين بن الضحاك فعنده أن صغار السقاة أجمل شكلا وأكثر غنجاً ودلالا قال[2] :

أصغر الساقِيَيْن أشـ ـكل عندى وأملح[3]
لو تراه كالظبى يسـ ـنح حينـا ويبرح
خِلْتَ أغصناً على كثيـ ـب بنَـوْر يرشَّحُ

(١) ديوانه (آصاف) ٣٣١ .
(٢) أشعار الخليع ٣٥ .
(٣) الشكل : الغنج والدلال .

كان من بين السقاة من يمتنع عن تحقيق مطالب المجان ويبدى صدوده وغضبه مما كان يثير دهشة الشعراء وتعجبهم فيصابون بخيبة أمل مؤقتة ، فأبو نواس يتحدث عن محاولة له مع غلام أبى أن يحقق له مطلبه ؛ فقال عنه إنه ذو نخوة وكأنه قد نشأ بين الأعاريب قال[١] :

يسعى بها مثل قرن الشمس ذو كفل ... يشفى الضجيع بذى ظَلْم وتشنيب[٢]
كأنه كلما حاولت نائله ... ذو نخوة قد نشا بين الأعاريب
يسطو علىّ بحسن لست أنكره ... يامن رأى حَمَلًا يسطو على ذيب

يروى عن الحسين بن الضحاك أنه كان فى مجلس شراب فطلب قبلة من الساقى فتأبى ، فهون عليه الأمر خادم اسمه فرج ، فدنا الساقى يناول الحسين وتغافل فاختلس منه الحسين قبلة ، فقال له الغلام : هى حرام عليك وأخذ يتوعده ، فسجل الحسين الحادثة فى قصيدة فقال[٣] :

وبديع الدل قَصْرىّ الغَنج ... مَرهُ العين كحيل بالدعجْ
سُمْته شيئاً وأصغيت له ... بعد ما صَرّف كأساً ومزج
واستخفَّته على نشوته ... نبرات من خفيف وهزج
فتأبى وتثنى خجلا ... وذرا الدمع فنوناً ونشج
لَجّ فى « لولا » وفى « سوف ترى » ... وكذا كفكف عنى وخَلَجْ[٤]
هوّن الأمر عليه « فرج » ... بتأتيه فسقياً لفرج[٥]

على الرغم من ذلك فإنهم لم يكونوا ليأسوا وإنما كانوا يترقبون لحظة أن يأخذ السكر مأخذه فى أولئك الصغار ليحققوا معهم ما يريدون وخاصة

---

(١) ديوانه (آصاف) ٢٤٧ .
(٢) الظلم : (بالفتح) : البريق . التشنيب : تحزيز الأسنان .
(٣) أشعار الخليع ٣٤ .
(٤) خلج : جذب وانتزع أى دفعه دفعة : انتزع نفسه منه .
(٥) التأتى : الترفق .

إذا كانوا ممن تدعو أجفانهم إلى الريب كما يقول أبو نواس[١] :

ياحسنها من بنان ذى خَنَثٍ تدعوك أجفانه إلى الريب

ويقول فى أحدهم[٢] :

إذا جَمَّشته خلبتك منه طرائف تُستخف لها القلوب
يكاد من الدلال إذا تثنى عليك ومن تساقطه يذوب
يَجرّ لك العِنان إذا حساها ويفسخ عقد تكته الدبيب

ويقول فى آخر[٣] :

فلم نزل والصبوح تأخذنا والكأس يجرى هناك مجراها
حتى إذا ما العشاء حان لنا قام إلى حصره فصلاَّها
ثم رأيت الغزال متجدِّلاً تصك يمنى يديه يسراها
فقمت أمشى إليه متئدًا وكأن شيئاً أستغفر الله

ثانيا : الغزل بغير السقاة من الغلمان :

لم يقتصر تغزل الشعراء فى الغلمان على السقاة فى الحانات أو مجالس الشراب ، ولكنهم تغزلوا فى غيرهم ، وقد تقدمت نماذج من هذا الغزل عند الشعراء المقلين ممن ذكرنا . ولكن أكثره وجد عند أبى نواس والحسين الخليع اللذين كان لكل منهما أكثر من غلام . قبل التحدث عن اتجاه الشاعرين فى هذا النوع من الغزل تجدر الإشارة إلى ما سلخاه من غزل المؤنث إلى غزل المذكر كذباً واصطناعاً إرضاء للنزعة الشاذة الغريبة ، فكثيراً ما نجد الحديث عن الهجران والصدود والكذب والخداع وإخلاف المواعيد .

---

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٤٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه ٢٤٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه ٢٤١ .

ونجد الشكوى والتألم وكأن موقف الشاعر مع امرأة وليس مع غلام . فأبو نواس يشكو فى الأبيات التالية بحرقة وألم جفاء غلامه له بلا ذنب جناه أو جرم اقترفه حتى إنه تمنى له أن يذوق الصدود والهجران ويقاسيهما كى لا يتمادى فى هجرانه وصدوده :

جفانى بلا جرم إليه اجترمته ... وخلفنى نِضوًا خليًّا من الصبر
ولو بات والهجران يصدع قلبه ... لجاد بوصل دائم آخر الدهر
مخافة أن يبلى بهجر وفُرْقَةٍ ... فيلقى من الهجران جمرًا على جمر
سقى الله أياماً ولا هجر بيننا ... وعود الصِّبا يهتز فى ورق خضر[1]

أما الحسين فيظهر فى بعض قصائده كأنه محب صادق وعاشق ولهان اكتوى بنار الحب وذاق لوعته ومرارته ، فراح يترسم خطى المحبين ، يلتفت بإحدى عينيه إلى محبوبه وبالأخرى إلى الرقيب خشية وخوفاً :

ومسترق للحظ لم يظهر الجوى ... يريد يناجينى فيمنعه الخجلْ
شكوت بطرفى ما أقاسى من الهوى ... إليه فأومأ بالسلام على وَجَلْ
تخبرنى عيناه عما بقلبه ... وقد مات من وجْدٍ وليس له حيل
فعين إلى وجه الرقيب لخوفه ... وعين إلى وجه الحبيب إذا غفل[2]

وذكروا الوشاة وإخلاف المواعيد ، فالنواسى بالرغم من أن غلامه كان كاذباً فى مواعيده إلا أن الوشاة لم يحطوا من منزلته عنده ، وإنما كان يزيده ذلك حبًّا له وتعلقاً به . قال[3] :

ما حطَّك الواشون من رتبة ... عندى ولا ضَرَّك مُعْتاب
كأنما أثنوا ولم يشعروا ... عليك عندى بالذى عابوا
وأنت لى أيضاً كذا قدوة ... لست بشىء منك أرتاب

---

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٧٩ ثم انظر ٤٠٨ على سبيل المثال أيضاً .
(٢) أشعار الخليع ٩١ .
(٣) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤٠٩ .

فكيف يعيبنا التلاق وما يَعْدَمُنا شوق وإطراب
كأنما أنت وإن لم تكن تكذب فى الميعاد كذاب
إن جئت لم تأت، وإن لم أجئ جئت فهذا منك لى داب

ومثل هذا كان شأن الحسين مع غلامه (يُسْر) الذى لم يكن يحافظ على مواعيده أو يحترمها حتى قال[١]:

فدعنى من مواعيد ك إذْ حيَّنك الدهر
فلا والله لا تبر ح أو ينقضى الأمر
فإما الغضب والذم وإمّا البذل والشكر
ولو شئت تيسّرْت كما سُمِّيت يا يُسْر

أكثر قصائد الحسين التى ذكر فيها الهجر والصدود والخداع والكذب والغدر كانت فى غلامه يسر الذى يظهر أنه كان شرساً شريراً ، فقد أخرج فى أحد مجالس الشرب مرة خنجراً ليضرب به الحسين لما جمّشه ، فذكر الشاعر هذه الحادثة فى قصيدة[٢] . ومن أقواله التى تدل على غدر غلامه وإخلافه المواعيد قوله[٣] .

تجاسرت على الغدر كعاداتك فى الهجر
فأخلفت وما استخلف ت من إخوانك الزُّهر
لئن خِسْت لَمَا ذا لك من فعلك بالنكر[٤]
بنفسى أنت إن سؤْت فلا بد من الصبر
وإن جرعنى الغيظ وإن خَشّن بالصدر[٥]

(١) أشعار الخليع ٥٤ .
(٢) المصدر السابق ٦٣ — ٦٤ .
(٣) المصدر السابق ٦٠ ثم انظر أيضا ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) خاس بوعده : أخلف .
(٥) خشن بالصدر : أوغر به .

ولولا ! فَرق منك لسمَّيتُك فى الشعر
وعنَّفتك لا آلو وإن جُزْتُ مدى العذر
أما تخرج من إخلا ف ميعادك فى العَشْر
غدًا يفطمنـــا الصوم عن الراح إلى الفطر[1]

كما يوجد فى شعرهم ما يرهم أنهم كانوا معذبين مولهين فى تعشقهم للغلمان ، ولا نعدم أن نجد أصداء اللوعة والحب فى قصائد تخدع بقوة عاطفتها وكأن هذا النوع أصبح شيئاً عاديًّا ، للشاعر الحق فى أن يقول فيه ما طاب له وحلا بلا رادع أو وازع . فأبو نواس يتحدث فى الأبيات التالية عن لوعته وشدة شغفه فيقول[2] :

أضرَمْت نار الحب فى قلبى ثم تبرأت من الذنب
حتى إذا لججتُ بحر الهوى وطَمَت الأمواج فى قلبى
أفشيت سرى وتناسيتنى ما هكذا الإنصاف يا حبى
هبنى لا أستطيع دفع الهوى عنى ، أما تخشى من الرّب

وفى أبيات أخرى نجده يشكو آلام الفراق وما ترك فى نفسه من متاعب ، وولّد عنده من مشاكل بعد أن فرّق أهل غلامه بينهما ونفروه منه . فهذه الواقعة — إن صحت — تعطى فكرة بشعة عن استشراء هذا الداء فى المجتمع والسكوت عليه حتى من قبل الأهل ، قال[3] :

قد ملَّنى أهلك يا سيدى ونفَّروا عنى مولائى
واضرموا إذ فرقوا بيننا فى كبدى نارًا وأحشائى
نارًا إذا ما التهبت فى الحشا لم يطفها المجهد بالماء
إلاَّ بريقٍ منك معسولة تشفى حراراتى وأدوائى

---

(١) الفطر : يوم عيد الفطر .
(٢) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤١١ — ٤١٢ .
(٣) المصدر السابق ٤٠٣ — ٤٠٤ .

فاشف غليلي وجوى حرقتى ... بقُبْلة تحبو بها فائى
إنى غدا من حبكم ميت ... كعروة من حب عفراء
أمسى وأضحى منك فى فكرة ... تمر إضحائى وإمسائى
وإن أنم من ليلتى ساعة ... ففيك أحلامى ورؤيائى
فقل لمن يعجب من فكرتى ... أنبيك يا عاجب أنبائى
حبى برى جسمى ، وأودى به ... كتمان أدوائى وبلوائى
فاليوم أبديه لعلى إذا ... أبديته عوفيت من دائى
عذبنى (صاد) و (فاء) معاً ... ألصقتا للحين (بالحاء)

اتجاهات الغزل بغير السقاة :

سار الغزل فى الغلمان من غير السقاة فى اتجاهين واضحين كلاهما حسى ، غير أن أحدهما حسى وصفى يقتصر على وصف محاسن الغلام وإبراز مفاتنه وتشبيهها بأشياء مادية حسية ، أما الآخر فحسى فاحش يصف مغامرات الشعراء وقصصهم مع الغلمان من تهتك بهم ودبيب إليهم وما يتعلق بهما من أمور .

يتضح الاتجاه الأول عند أبى نواس والحسين الخليع بكثرة ، ويلاحظ لأول وهلة أنهما حولا الغزل فى هذا الاتجاه أيضاً من المؤنث إلى المذكر فراحا يصفان الغلمان أوصافاً حسية بارزة كالذى كان من أمر أصحاب مثل هذا الاتجاه فى غزل المؤنث فى شتى العصور ، بحيث إنهما لم يتركا عضواً أو مكاناً بارزاً دون أن يصفاه أو يشيرا إليه . والأبيات التالية للحسين بن الضحاك تمتزج الأوصاف القديمة بالحديثة المستمدة من واقع العصر وما طرأ عليه من تقدم حضارى ، قال [1] :

وابأبى أبيضُ فى صُفْرة ... كأنه تبر على فضهْ
جردّه الحمام عن دُرّةٍ ... تلوح فيها عُكَن بضهْ

(١) أشعار الخليع ٧٠ – ٧١ .

غصن تبدى يتثنى على مأكمة مثقلة النهضة
كأنما الرّش على خده طَلٌّ على تفاحة غضّه
صفاته فاتنة كلهـا فبعضه يذكرنى بعضه

فالأوصاف : أبيض فى صفرة ، ودرة ، وغصن يتثنى ؛ أوصاف قديمة طالما رددها الغزلون القدماء ، أما الجديدة فمن مثل قوله (تبر على فضة) ، والتشبيه التمثيلى فى تشبيه ما بوجه غلامه من نمش بالندى المتساقط على تفاحة طرية . وهى صورة حضارية جديدة لم تعهد من قبل . وتظهر الأوصاف القديمة فى أبيات أبى نواس التالية . فوجه غلامه كالبدر ، وعيناه عينا ظبى ، وجيده جيد غزال ، ومن خده يشع نور يضىء فى الظلام والديجور ، ومع أنه ذكر إلا أنه مؤنث فى غنجه وخلواته . يقول (١) :

فالوجـه بدر تمام بعين ظبى فلاة
مفـرد بنعيم من الظباء اللواتى
ترود بين ظباء مصائف ومشـاتى
فالجيد جيد غزال والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلـوات
من فوق خد أسيل يضىء فى الظلمات
وشارب يتلالا حين ابتدا فى النبات

غير أنه فى البيت الأخير وصف الشارب كما وصف اللحية فى قصائد أخرى، وهما من الأوصاف الجديدة التى دخلت الغزل بدخول هذا الغزل الجديد الشاذ . ويسرد فى قصيدة أخرى طائفة أخرى من الأوصاف القديمة ، فغلامه دقيق الخصر أهيفه ، نحيف كغصن البان لا التواء فيه . فى وجهه قمر ، وفى طرفه حور . أما الثغر والخدان والوجنتان فمن الذهب الخالص، تتلألأ فى ضوء الشمس .

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤١٥ .

يقول [١] :

وأهيف الخصر مهضوم الحشا ،غنخ يصبو إليه الذى قد صام أو عبدا
فى طرفه حور ، فى وجهه قمر كأنه غصن بان جانب الأَوَدا
والثغر دُرٌّ ، وخده ووجنته نبر أضاءت عليه الشمس فاتَّقدا
والحاجبان فمخطوطان من حمم كأن عطفهما نونان قد عقدا
والله ما إن رأت عينى له شبهاً حُسْناً وملحاً ونوراً جلّل البلدا

ووجدت مثل هذه الأوصاف عند الخليع ولكن بأقل مما عند أبى نواس ، يقول [٢] :

أيـــا مَنْ طرفه سحر ومَنْ ريقتـــه خمـــر

ويقول [٣] :

وصف البدر حسن وجهك حتى خلت أنى لما أراه أراكا
وإذا ما تنفَّس النرجس الغض (م) توهمتـــه نسيم شذاكا

من الأوصاف البارزة والمفاتن التى ما انفك هذا النفر من الشعراء يرددها ويلفت إليها الأنظار فى الغلمان حسن الوجوه وطول الشعور والاهتمام بتصفيفها ، تقدم بعضها وذا وصف آخر لأبى نواس [٤] :

يتيه على العباد بحسن وجه وشَعْر قد أطيل على قفاه
وأصداغ يرصفها أميرى على خدٍ تلألأُ وجنتاه
براه الله من ذهب ودُرٍّ فأحسن خلقه لما براه

ولم تخل أوصافهم من صور بديعة جميلة وإن بولغ فى معانيها ، منها ما جاء

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤١٩ .
(٢) أشعار الخليع ٥٤ .
(٣) المصدر نفسه ٨٨ .
(٤) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤٠٦ .

فى قول أبى نواس[١] :

غريب الحسن ليس له ضريب ... بعيد فى مطالبه قريبُ
تفرَّد بالجمال بغير مِثْل ... وأخلته المذمة والعيوب
تنازعه القلوب إلى هواها ... فتغتصب القلوبَ به القلوب
فغاصبها المحيط بها سرورا ... ومغصوب عليه له وجيب
له شمس تزيد بديع حسن ... على خديه ليس له غروب
تأمله العيون ، فحيث حلَّت ... وخيّم لحظها حسن غريب

وما جاء فى قوله أيضاً[٢] :

بعينيه سحر ظاهر فى جفونه ... وفى نشره طيب كفائحة العطر
هو البدر إلا أن فيه ملاحة ... بتفتير لحظ ليس للشمس والبدر

فالمعنى فى البيت الثانى من ألطف المعانى وأجملها ، فغلامه بدر ولكنه يمتاز عن البدر والشمس بتفتير ألحاظه ، وهذه التفاتة بديعة من أبى نواس وتجديد فى المعانى القديمة بحيث لو شبه الغلام بالبدر ووقف عنده لما فهمنا منه غير ما تعودنا أن نفهم أنه جميل ، ولكن الزيادة التى أضافها أضافت بدورها للمعنى شيئاً جديداً وأضفت عليه رونقاً بديعاً قلما يتسنى العثور عليه عند الشعراء .

ومن الأوصاف الحسية الجديدة جدة الغزل الشاذ وصف اللحية ، وكان ضرورياً أن يتعرض لها الشعراء ، لأنه كان من بين غلمانهم من نبتت لحيته وطر شاربه ، وإن عد الجاحظ اللحية من الصفات المذمومة فى الغلمان ، فالغلام عنده أكثر ما تبقى بهجته ونقاؤه عشرة أعوام أى إلى أن تتصل لحيته ويخرج عن حد المرودة . وأما بعد ذلك فهو : « وقاح ، طوراً ينتف لحيته ، وتارة يهلبها يستدعى شهوة الرجال ، وقد أغنى الله الجارية عن ذلك لما وهب لها من الجمال.

---

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤٠٨ .
(٢) المصدر السابق ٢٧٩ .

الفائق والحسن الرائق »[١] . وخير مصداق على كلام الجاحظ ما قاله الحسين ابن الضحاك فى غلام خرجت لحيته فجعل ينتف ما يخرج منها فشبهها بالثوب ذى الخطوط البيضاء الطويلة مرة ، أو بزرع سطا عليه الدود فترك فيه فراغاً وأحدث تقصفاً فقال[٢] :

ثكلتك أمك يا ابن يوسف حَتَّام ويحك أنت تنتفْ
لو قد أتى الصيف الذى فيه رؤوس الناس تُكْشفْ
فكشفت عن خديك لى لكشفت عن مثل المفوَّف[٣]
أو مثل زَرْع ناله اليـ رقان أو نكباءُ حَرْجفْ[٤]
فغدا عليه الزارعـو ن ليحصدوه وقد تقصَّف
وظللت تـأسف كالأُلى أسِفوا ولم يُغْنِ التـأسف

أما الشاعر البصرى محمد بن يسير فكان، على ما يظهر، يكره ذوى اللحى ولا يميل إلا إلى المرد . روى أبو الفرج أن كان لابن يسير بابان ، يدخل هو من الكبير ، ويدخل إخوانه وغلمانه المرد من الصغير ، فحدث أن جاءه ذات يوم غلام خرجت لحيته فدخل من الصغير كما تعود. فلما بلغه ذلك كتب إلى الغلام مشبهاً لحيته بمخلاة الشعير فقال[٥] :

قل لمن رام بجهل مَدْخلَ الظبى الغرير
بعد أن علَّق فى خد يه مِخْلاة الشعير
ليته يدخل إنْ جا ءَ من الباب الكبير

وكذلك كان الشاعر أحمد بن إسحق الخاركى لا يحب اللحية فى الغلمان

---

(١) مفاخرة الجوارى والغلمان – رسائل الجاحظ (بتحقيق هارون) ٢ / ١٢٢ .
(٢) أشعار الخليع ٧٨ .
(٣) البرد المفوَّف : الذى فيه خطوط بيض على الطول .
(٤) اليرقان : آفة للزرع أو دود يسطو عليه . والنكباء الحرجف : الريح الباردة .
(٥) الأغانى ١٤ / ٣١ .

فيقول [١] :

لهفى عليك وما يَرُدُّ تلهفى بعد الظلام غضارة الأَنوار
وكأَن خطَّ الشعر فى جنباته لَيْل أَقام على نجوم نهار
لو يبتلى بدر السماء بلحيةٍ لا سْوَدّ حتى لا يضىء لسارى

أما عن الاتجاه الفاحش فكان وجوده أمراً طبيعيًّا لأن ارتكاب الفاحشة مع الغلمان — كما اتضح فيما تقدم — فى هذا القرن كان أمراً عاديًّا أو كاد . وقد عرف باللواط عدد من الشعراء وغير الشعراء الذين سقنا أخبارهم مقدماً ، فكان لا بد للشعراء والحال هذه أن يتحدثوا عن مغامراتهم وقصصهم وارتكابهم الفواحش مع الغلمان بشعر فاضح صريح كالذى كان من أمر أصحاب مثل هذا الاتجاه فى غزل المؤنث من شعراء الجاهلية وما بعدها . وتقدم فى الحديث عن الغزل فى السقاة أنه كان فى الحانات نفسها ما يدعو إلى ارتكاب الفواحش وهو ما صرح به الشعراء ورددوه وتحدثوا عنه بكل صراحة،وكان فى طليعتهم أبو نواس الذى عرضنا لمذهبه فى الغلمان . وهو فى الأبيات التالية يكشف عن نهمه وميله إلى الجنسين معاً فيقول [٢] :

لا تحقرن لطيفة صغرت ولا ذات كبر
ممن تبرج للزنا والحور ربّات الخدر
والمرد لا تدعنهم أَهل التصفق والطرر

أكثر ما كان دبيبهم إلى الغلمان بعد إسكارهم . ومن هنا كانوا ينطلقون عليهم إنطلاق الذئاب على الحملان ، وهذه أقوالهم شاهدة عليهم ، قال أبو نواس [٣] :

وغزال عاطيتـــه الكأس حتى فَتَرَتْ منه مُقْلَةً ولسانا

---

(١) الورقة — لابن الجراح ٦٣ .
(٢) أبو هفان ٥٥ .
(٣) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٥٤ .

قال لا تُسْكِرَنِّى بحياتى   فقلت : لا بد أن ترى سكرانا
إن لى حاجة إليك إذا نِمْـ   ـتَ فإن شئت فاقضها يقظانا
فتلكىٰ تلكياً فى انخناث   ثم أصغى لما أردت ، فكانا

وهذه قصة أخرى مع غلام آخر أسكره فقضى وطره منه ، قال [1] :

وغــزال زان بالقا   مة ردفاً بربريا
قاده إبليس طوعاً   بعدما كان عصيا
فسقيناه على الور   د شراباً ذهبيًا
وكشفنا عن بياض الـ   رِّدْفِ ثوبــاً قصبيــا
فوجدنا خلفه دعـ   ـصاً من الثلج نقيا
فركبناه بــلا سر   ج ركوباً مَرْوَزِيا
وحمدنا السير لما   أن رأيناه وطيا

ولأبى نواس كما تدل أشعاره قصص كثيرة وحوادث شتى من هذا النوع ، يتحدث فيها عن ليالى سمره وخلوته بالغلمان فيكشف عما كان يدور من تهتك وخلاعة وفحش يندى له الجبين العربى الذى لم يتعوده من قبل فى عهود أصالته وقوته . منها قصيدة يتحدث فيها عن غلامه ويصف محاسنه ومفاتن الجمال فيه ثم يذكر ما كان من أمره معه من السخط والغضب وإخلاف المواعيد حتى إنه ليبالغ كثيراً فى بعض الصور التى رسمها لجماله ، قال [2] :

يحار رجع الطرف فى وجهه   وصورة الشمس على صورته
ينتسب الحسن إلى حسنه   والطيب يحتاج إلى نكهته
لو أمكن القاضى فى خلوة   عامله القاضى على عفته

---

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٥٤ ثم انظر ٢٠٢ أيضاً .
(٢) الفكاهة والائتناس ٢٦ — ٢٧ .

ومن ثم ينتقل إلى وصف ليلة قضاها مع غلامه فى مجلس أنيق يحف به التفاح والرياحين، ولم يكن يراهما إلا الخمار الذى كانا من خمرته يشربان :

وليلةٍ قصّر لى طولها بالكرخ إذ متعت من رؤيته
فى مجلس يضحك تفاحه بين الرياحين إلى خضرته
ما إن يرى خلوتنا ثالث إلا الذى نشرب من خمرته
خمرته فى الكأس ممزوجة كالذهب الجارى على فضته
فتارة أشرب من ريقه وتارة أشرب من فضلته
وكلما عضض تفاحة قَبّلت ما يَفْضُل من عضته
سَرَتْ حُمّيا الكأس فى رأسه ودبت الخمرة فى وجنته
مَلَّكنى حَلّ سراويله إذ شغلَتْهُ الراح عن تكته
فصار لا يدفع عن نفسه وكان لا يأذن فى قبلته
دَبّ له إبليس فاقتاده والشيخ نفّاع على لعنته
عجبت من إبليس فى تيهه وخبث ما أظهر فى نيته
تاه على آدم فى سجدةٍ وصار قوّادًا لذريته

وله غير هذه القصيدة قصائد أخرى مشابهة فى ديوانه تكشف عن غزله الفاحش وعن تدنيه فى الانحطاط والسفالة [١] . وبالرغم من مذهبه الذى كان يدعو إليه وهو أن لا يوفر المرء أحداً من البشر [٢] فقد كان متناقضاً فى مواقفه بالنسبة للملتحين ، فمرة نجد فى شعره ما يدل على أنه كان يبتعد عن الغلام إذا ما نبتت لحيته وطـرّ شاربه فيقول [٣] :

يعجبنى الأمرد الطرير إذا أبصرته أهيفاً له كفل

(١) انظر : ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٢٩٨ .
(٢) الفكاهة والائتناس ٣١ ، ٤٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ وغيرها .
(٣) ديوان أبى نواس (آصاف) ٦٤ .

حتى إذا ما رأيت لحيته فليس بيني وبينه عمل
إلا سليمان إنه رجل تحل بيني وبينه القبل

ونجده مرات كثيرة فى أشعاره ينتحل الأعذار والحجج للتقرب منهم . ففى أخباره وهو ما رواه يوسف بن الداية أن غلاماً جاءه وقد التحى فلم يفلت منه بحجة أنه كان يأتيه بين الحين والحين ويأخذه على طيبه الأول ، يقول[1] :

رأى بخدّيه نابتاً زَغَباً فضنّ عنى هناك بالقُبَلْ
وقال : قد صِرْتُ يا فتى رجلا وذا قبيح أراه بالرجل
فقلت : يا مَنْ زها بلحيته الآن والله طبت للعمل
ذا زعفران ، والمسك تربته يخرج من تحت صدغك الرَّجِلْ

حاول الغلام المراوغة والتملص محتجاً بلحيته ولكن الخبيث أبا نواس أخذ يحتال عليه مشبهاً لحيته بالزعفران ووجهه بالمسك . وقد أتى الشاعر مثل هذه المعارضة من غلام آخر راوده فأبى محتجاً بخروج لحيته . فأخذ يداعبه كما داعب سابقه مشبهاً لحيته بالنرجس والورد فقال[2] :

ونرجس قد حُفَّ بالورد فى خد مَنْ قد لجّ فى البعد
راودته عن نفسه خالياً فقال يلقانى بالرد :
أما ترانى قد بدت لحيتى كُفّ ، وخذ فى طلب المرد
فقلت : هذا نرجس طالع وَرد فى العارض والخد

أما لحية غلامه ابن فورك فلم تكن لتمحى محاسن وجهه فى نظره ، وإنما كانت – عنده – كالبهار على الشجر أو كروضة خضراء فيها أنواع الزهر . قال[3] :

قالوا : التحى فمحا محا سن وجهه نبت الشَّعَرْ

---

(١) أبو هفان ٤٨ .
(٢) الفكاهة والائتناس ٣١ .
(٣) أبو هفان ٥٥ .

فأجبتهم : لا يسبقن في الدور سيلكمو المطر[١]
الآن طاب وإنما ذاك البهار على الشجر
تلك اللُّحَيَّة روضة خضراءُ تنبت في الزهر
لولا سواد في القمر والله ما حسن القمر

وكان يرى أن اللحية لا تعيب الغلام، بل إنها حِرْز له ممن يطالبه ويراوده ؛ كما أنها في الوقت نفسه تجنبه الشبهة إذا ما شوهد الغلام ماشياً معه . فأقل ما يقال فيه عند ذلك — كما كان يعتقد — أنه صاحبه ، يقول [٢] :

قال الوشاة : بدت في الخد لحيته فقلت : لا تكثروا ما ذاك عائبه
الحسن منه على ما كنت أعهده والشَّعْر حرز له ممن يطالبه
أبهى وأكثر ما كانت محاسنه أن زال عارضه واخضرَّ شاربه
وصار من كان يلحى في مودته إن سأل عني وعنه قال : صاحبه

ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد في ميله الشاذ وإنما تعداه إلى الميل إلى الكبار في السن من أبناء جنسه بدليل أبيات قالها في غلام له خرجت لحيته [٣] .

وبعد . . فلا بد من التعرض هنا لانحراف أبي نواس وشغفه بالغلمان كما يظهر في أخباره وشعره ، وقد أثار الموضوع تساؤلات الدارسين المعاصرين الذين درسوا أبا نواس أو عرضوا له فاختلفت وجهات نظرهم ، إذ حاول بعضهم أن ينفي عن الشاعر التهمة ويوجهها توجيهات معينة . فأحمد السقاف يذهب إلى أنه كان بريئاً من وصمة الميل إلى الغلمان لأنه كان يظهر خلاف ما هو عليه ، فيتغزل بالمرد ويكثر ذكر اللواط للتحلي به في الشعر مباراة لمطيع ووالبة وخلف والحسين ابن الضحاك وحرصاً على إظهار تفوقه عليهم في هذا الباب [٤] . أما الدكتور

---

(١) يقال : سبق مطره سيله ، مثل يضرب لمن يسبق تهديده فعله .
(٢) ديوان أبي نواس (آصاف) ٤١٠ .
(٣) الفكاهة والاتئناس ٣١ .
(٤) الأوراق ، للسقاف ١٣٦ — ١٣٧ .

أحمد كمال زكى فيرى أن مبالغة أبى نواس فى انحرافه قد تفسر بإخفاقه فى حب جنان ، ثم إن غلامياته لم تكن إلا فى عهد الأمين لشذوذه فكأنما هى تبرير له . ويضيف إلى ذلك أن الولع بالغلمان عادة فارسية فلا يستبعد إذن أن يكون انحراف الشاعر مجرد ظاهرة فنية [١] . وقد اعتمد الباحثان السابقان على نص أورده ابن المعتز فى طبقاته فى أخبار محمد بن حازم الباهلى إذ قال عنه: « وهو أحد جماعة كانوا يصفون أنفسهم بضد ما هم عليه حتى اشتهروا بذلك ، منهم أبو نواس ، كان يكثر ذكر اللواط ، ويتحلى به وهو أزنى من قرد . . . »[٢] .

أما محمد النويهى فلا يشك فى أن أبا نواس كان حقًّا ذا سلوك جنسى شاذ مثبتاً ذلك بما فى شعره من تفضيل الغلمان على النساء مما استشهدنا به ، ثم إنه كان يواصل من يظفر بهن من النساء مواصاة الذكور. من الأمثلة على ذلك قصته مع الغلامية جارية أسماء بنت المهدى [٣] . وعليه فسر إعجابه بالغلاميات [٤] . وراح النويهى يفسر شذوذ أبى نواس مستعيناً بعلم النفس والدراسات النفسية الحديثة التى تحصر الشذوذ الجنسى فى ثلاثة أنواع : الأول ما يسببه التكوين الجسمانى الخاص للفرد ، والثانى نتيجة عوامل نفسانية ، أما الثالث فمرجعه الظروف الاجتماعية . ولم يفلت أى نوع من هذه الأنواع الثلاثة من النويهى وهو يفسر شذوذ أبى نواس ، فبالنسبة للأول يزعم أنه كان ثمة اضطراب جسمانى فى تكوين أبى نواس معتمداً على ما ساقه القدماء؛ كابن منظور من أوصافه الجسمانية من حسن بدن ، ولطف قَدّ ، وجمال وجه ، ورشاقة حركات وغيرها مما جعلته يرى فيه طبيعة أنوثية واضحة . وهذا ما لا نتفق فيه معه لأن كثيرين قد يمتازون بمثل الصفات التى امتاز بها أبو نواس ولكنهم ليسوا من الشذوذ فى شىء ، وقد فطن النويهى نفسه إلى ضعف حجته فقال : « كل هذه الشواهد قد تعزز قولنا لو رجحنا أن الأصل فى شذوذه التوا جسمانى فى أجهزته الجنسية والغدية ولكننا

---

(١) الحياة الأدبية فى البصرة ٥٣٥ .
(٢) طبقات ابن المعتز ٣٠٩ .
(٣) أبوهفان ٢٨ — ٣١ وابن منظور ١ / ١٦٦ — ١٦٧ .
(٤) نفسية أبى نواس ٦٧ — ٧٢ .

لا نستند على هذا التعليل ، فليس فى كل ما مر قوة الدليل القاطع الملزم بالإقناع »[١].

أما عن العامل النفسى فقد عزاه إلى ظروف أبى نواس الخاصة من وفاة والده وهو صغير وكفالة أمه له حتى زواجها من رجل آخر ، ولكنه لم يستطع أن يجزم بعطفها وحنانها عليه أو إهمالها له ، ولو أن الإفراط فى كليهما يؤدى إلى عقدة نفسية قد تؤدى إلى الشذوذ ، ولكنه يميل إلى أن السبب المباشر كان يكمن فى زواج أمه من رجل آخر . وفى الوقت نفسه يستبعد ما قيل عن تعهرها وفتحها بيتها لطلاب الهوى كما تذكر المصادر القديمة ، دليله على هذا أنها كانت تكسب معاشها من حرفة تشتغل بها ، فلو كانت تحترف البغاء أو القوادة لما احتاجت إلى حرفة يدوية مجهدة ، ثم إنها لو كانت تهمة ثابتة لاستغلها الشعراء ممن دخلوا ميدان الهجاء مع الشاعر [٢] . أما عن العامل الاجتماعى ، وهو أقوى العوامل فى رأيى ويأتى بعده العامل الثانى ، فقد وجد أبو نواس فى مجتمع عرف الشذوذ إليه طريقه وخاصة فى الأوساط الأدبية التى كان يألف جوها ويتردد عليها [٣] .

أما عباس محمود العقاد فله ملاحظات على شذوذ أبى نواس وغزله فى المذكر نتفق معه فى بعضها ونخالفه فى بعضها الآخر ، فمما نختلف فيه معه منذ البداية ما ذهب إليه من تفسيره غزل أبى نواس فى المذكر بظاهرة التلبيس حيث يقول : « والمدار فى غزل أبى نواس جميعه على الصورة التى يشخص بها نفسه فى ذات معشوقه أو معشوقته على دأب النرجسيين ، وقد كان يعجبه ممن يتغزل به أنه ألثغ بالراء ، وأن يتشبه بالأدباء وأن يقتدى بهم يوم كان معشوقاً فى صباه (كأبياته التى قالها فى بدر) ولم تفارقه هذه الخليقة النرجسية حتى بعد أن كبر واكتهل »[٤] ما ذهب إليه العقاد يدل على عدم اعترافه بأن النرجسية (Narcissim) ، كما يقول علماء النفس ، دور من الأدوار الثلاثة الطبيعية التى لا بد لكل امرئ من المرور بها ، وهى تأتى فى الدور الثانى ، أما الأول فدور اللذة الحسية ،

---

(١) المرجع السابق نفسه ٧٢ — ٩٢ .
(٢) المرجع السابق ١٠٢ .
(٣) المرجع نفسه ١٠٣ .
(٤) أبونواس ١٦٥ ثم انظر : ٤٣ ، و ٤٥ أيضاً .

وأما الثالث فدور الاهتمام بالعالم الخارجى [١] . فما دامت الرجسية دوراً من الأدوار الطبيعية فى حياة الإنسان فهل يصح أن نفسر بموجبها شذوذ أبى نواس دون غيره ؟ ثم إن ما كان يعجب الشاعر فى غلمانه من لثغ بالراء وغيره كان يعجب غيره أيضاً ، فلماذا لا نتهم هؤلاء ونصفهم بالتلبيس ؟ وزيادة على هذا فإن اللثغ أو اللحن كان سائداً فى ذلك العصر وخاصة بين الموالى وغير العرب الذين كان من الصعب عليهم أن ينطقوا بالعربية كأبنائها . ومن الشعراء الذين ذكروا الصفات التى ذكرها أبو نواس فى غلمانه عبد الرحمن بن أبى الهداهد الذى يقول فيه ابن منظور : « وكان لا يكاد يقول شيئاً إلا نسب لأبى نواس » قال ابن أبى الهداهد — وهو من الغزل الفاحش — [٢] :

وشاطر ما جن الشمائل قد ... خالط فيه المجون تخنيثا
تراه طوراً مذكراً فإذا ... عاقر راحاً رأيت تأنيثا
يميل للمشى فى معصفرة ... تحكى لنا الجُلَّنار والتوثا
ألثغ إن قلت يافديتك ، قل: ... موسى ، يقل فى رطونة موثى
ما زال حتى الصباح معتنقى ... مطارحى فى الدجى الأحاديثا

أما ما نتفق فيه مع العقاد فهو مبالغة أبى نواس فى غزل المذكر الذى شاع فى هذه الفترة فكان : « بدعة يلهج بها من لم يكن من أهل الفسوق والمجانة . فالإفراط فى غزل المذكر لا يحسب كله على أبى نواس ولا يتخذ كله دليلاً على نوازعه رأهوائه ويصدق عليه فى هذه الخلة ما يصدق على الشيطان فى أمثال الغربيين ، فليس من السواد الحالك بحيث يرسمه الرسامون » [٣] .

ونحن لا نشك فى أن الشاعر قد حمل عليه فى هذا الشىء الكثير ولكننا فى الوقت نفسه لا نبرئه من هذه التهمة ولا نستبعد عنه مثل هذا الغزل الفاحش

---

(١) أسس الصحة النفسية ٤٤٦ .
(٢) ابن منظور ١ / ٧٦ . ونسبت هذه الأبيات — ماعدا الثالث منها — إلى الفضل الرقاشى فى نهاية الأرب ٢ / ٢١٥ .
(٣) أبونواس ١٧٢ .

بالمذكر الذى كان حقيقة واقعة فى مجتمع القرن الثانى ، ومما يؤكد ما حمل على أبى نواس ما أشار إليه حمزة الأصفهانى فقال : « وقد خص شعر أبى نواس من لهج الناس بإضافة المنحول إليه بما ليس فى غيره من الأشعار وذلك أن تعاطيه لقول الشعر كان على طريق غير طريقهم، لأن جل أشعاره فى اللهو والغزل والمجون والعبث . . فلما عرف طريق أبى نواس فى الهزل وشهر به ألحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه لمن كان من الشعراء الذين لم يسر شعرهم »[١] .

ثم يذكر أنه وجد فى نسخ شعره شعر شاعرين من شعراء أصبهان هما منصور ابن باذان وعبدة بن زياد الجرجانى . ثم إن أحمد بن عثمان البرى وهو — كما يقول — أروى خلق الله لشعر أبى نواس روى له أبياتاً فاحشة وهى التى يدعو فيها إلى ممارسة اللواط مع أبناء العم وذوى القربى والجيران والشيوخ . وهذه الأبيات كما يذكر حمزة مثبتة فى نسخ شعر منصور العتيقة ، يضاف إلى ذلك ما ينسبه حمزة إلى العراقيين من أنهم أدخلوا فى شعر أبى نواس الشىء الكثير من أشعار أهل الجبل وأشعار شعرائهم هم من مثل الحسين الخليع وغيره[٢] .

ولكن هذا لا يمنع من القول إن فى غزل أبى نواس ما يقصد منه العبث والتماجن وإشباع رغبته الفنية لا الفحش والمجون والتعهر ، من أمثلة هذا الشعر ما قاله فى غلمان الكتاتيب وغيرهم مما وصل إلينا . قال فى أحد غلمان الكتاتيب[٣] :

إن فى المكتبة خشفاً جعلت نفسى فداه
شادن يكتب فى اللو ح لتعليم هجاه
كلما خطَّ « أباجا دٍ » قراه فمحاه
بلسان ؛ فتراه الد هر قد سوّد فاه

ومن هذا ما قاله له فى غلام أهمل واجباته فى مكتب حفص فعاقبه معلمه، قال أبو نواس[٤] :

---

(١) ديوان أبى نواس (فاجئر) — مقدمة حمزة الأصفهانى ٧ .
(٢) المصدر السابق نفسه ٨ .
(٣) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤٠٤ .
(٤) ديوان أبى نواس (آصاف) ٤١٨ .

إنّى أبصرت شخصاً قد بدا منه صدود
جالساً فوق مصلى وحواليه عبيـد
فرمى بالطرف نحوى وهو بالطرف يصيد
ذاك فى مكتب حَفْصٍ إنّ حفصاً لسعيد
لم يزل مذ كان فى الدر س عن الدرس يحيد
كُشفتْ عنه خزوز وعن الخز برود
ثم هالوه بِسَيْر لَيِّن ما فيه عود
عندها صاح حبيبى : «يا معلم لا أعود»
قلت : يا حفص اعف عنه إنه سوف يُجيد

وقد روى أبو هفان عن محمد بن حرب عن عمه أنه لما ولّى هارون الرشيد إسماعيل بن صبيح ديوان الرسائل بعد البرامكة ، استخلف إسماعيل ابنه على بعض الدواوين وطلب إلى أبى نواس أن يدخل على ابنه محمد ينشده : فقال فيه أبياتًا فاحشة بذيئة وأشاد بحسنه وجماله ، وتقول الرواية إن أباه قال لأبى نواس : « سبحان الله أول ما لقيت ابنى لقيته بهذا ؟ قال : هكذا رزق منى وهو أحوج إليه ، قال : فلامه بعض إخوانه على ذلك فقال : لا يلقى ولد سَاعٍ إلا بمثل هذا وإن كان أحسن من تمام النعمة وكمال العافية »[1] . وأرى أن ما قاله أبو نواس من شعر فاحش فى هذا الغلام وأن الرواية نفسها من التزيدات التى لحقت بالشاعر أو نسبت إليه ، إذ لا يعقل أن يدخل أبو نواس أو أى شاعر مهما كان منحلا على مسؤول فى بعض الدواوين والده المسؤول الأول عن ديوان الرسائل فى عهد الرشيد وينشده شعراً فاحشاً فى شخصه طالباً إليه قبلة على أنها (فِعْلة) من غيره ، ثم يأتى والده بعد ذلك يعاتبه بالكلام الذى نقلناه عن الرواية ويرد عليه أبو نواس برده المتقدم وهو لا يحرك ساكناً ، كل هذا يشجع على الشك فى الرواية .

(١) أبوهفان ٤٩ — ٥٠ .

لم يكن الحسين بن الضحاك بمنأى عن الغزل الفاحش بالمذكر إلا أنه أقل مرتبة فيه من أبي نواس ، ففي إحدى قصائده في (يسر) والتي يذكر فيها أياماً له مضت معه وما كان فيها من متعة ولذة ، يقول [١] :

وليلةٍ بتها مُحَسَّدةٍ محفوفةٍ بالظنون والتُّهَم
أبتُ عبراته على غَصَصٍ يَرُدُّ أنفاسه إلى الكَظَم [٢]
سقياً لقيطونها ومخدعها كم من لِمام به ومن لَمَم [٣]
وليلة القُفْص إنْ سألت بها كانت شِفاءً لِعلَّةِ السَّقم [٤]
بات أنيسي صريع خمرته وتلك إحدى مصارع الكرم
وبتُّ عن موعد سبقتُ به ألثُم درًّا مفلَّجا بفم
وابأبي مَنْ بدا بروعة «لا» وعاد من بعدها إلى «نعم»
أباحني نفسه ووسّدني يمنى يديه وبات ملتزمي

وفي قصيدة أخرى يشرح الخليع كيف يمكن التوصل إلى الغلام والسيطرة عليه والدبيب إليه إذا ما أبدى معارضة وتعففاً ، وليس من طريق إلى ذلك إلا أن يرنحه السكر ، يقول [٥] :

بأبي ما جن السريـ ـرة يُبـدي تعففـا
حَفَّ أصداغه وعقـ ـر بها ثم صفَّفا
وحشا مدرج القُصا ص بمسك ورصّفا [٦]

---

(١) أشعار الخليع ١٠٥ – ١٠٦ .
(٢) الكظم : حبز في النفس .
(٣) القيطون : بيت في مثل المخدع . يزورنا لماما : أي غباً . اللمم : صغار الذنوب . أو مقارفة الذنب من غير أن يقع فيه .
(٤) القفص : قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا ، قريبة من بغداد وكانت من مواطن اللهو (معجم البلدان) .
(٥) أشعار الخليع ٨٢ .
(٦) القصاص : نهاية منبت الشعر ومنقطعه على الرأس .

فإذا رمتُ منه ذا لك تـأبّى وعنّفا

ليس إلا بـأن يرڤ (م) حه السكر مُسْعفا

باكِرا لا تسوفا نى عدمتُ المُسوِّفا

أعجلاه وبالفُضا ضة فى السق فأعنفا[1]

واحملا شغبه وإن هو زنَّ وأفَّفـا[2]

فإذا هَمَّ للمنا م فقوما وخففـا

ثم يتحدث فى قصيدة أخرى عن قصة له مع غلام (بغُمّى) دس له الخمر حتى سكر وانتشى وكأنه قد استفاد من درسه الذى شرحه فى القصيدة السابقة ، ولما شعر بأن الخمر قد أخذت من الغلام مأخذها قام إليه وقضى منه حاجته ، قال[3] :

حتى إذا رنّحته سَوْرتُها وأبدلته السكون بالحَرَكِ

كشفت عن وزّةٍ مزعفرة فى لين صينيّة من الفَلَك[4]

فكان ما كان لا أبوح به فى الناس من هاتك ومنهتك

فى أشعار الحسين الفاحشة هذه رد على ما يذهب إليه مصطفى هدارة من أن تغزل الخليع فى المذكر من النوع المعنوى ، بحيث شجعه استنتاجه ذاك على أن يقول : « فهو إذن بعيد عن الإفحاش الذى نجده عند أبى نواس وأضرابه ، وربما كان السبب فى ذلك عمل الخليع نفسه كنديم للخلفاء ، فإفحاشه يسقطه عند العامة ويؤلب الخلفاء عليه »[5] . ولكن الخليع ليس بعيداً عن الإفحاش — كما تصور هدارة — بدليل شعره المتقدم ، ولكن ليس ينكر أنه كان أقل فحشاً من أبى نواس وربما كان لمنادمته الخلفاء بعض دخل فى هذا ، لأنه كان من ندماء الأمين

---

(١) الفضاضة : آخر الشيء .

(٢) زنى : قذف وسب .

(٣) أشعار الخليع ٨٨ .

(٤) الفلك : التل من الرمل وغالبا ما تشبه العجيزة به فى الضخامة واللين .

(٥) اتجاهات الشعر فى القرن الثانى ٥٢٢ .

كأبى نواس. وسبق أن قلنا إن الأمين نفسه قد يُعَدُّ سبباً من أسباب انتشار هذا الغزل والتشجيع على قوله والخوض فيه وربما كانت أكثر أشعار أبى نواس والخليع فيه إرضاء للخليفة وإشباعاً لرغبته . أما أن يكون فى غزل المذكر شىء اسمه الغزل المعنوى فشىء بعيد كل البعد عن الطبيعة الإنسانية التى لم يخصها الله بشىء من هذا ولم يدرج فى حسابها ، فهو لون شاذ وكل ما يتعلق به شاذ مثله ، وقد عبر عن هذه الأفكار الدكتور يوسف خليف فى قوله : « وبطبيعة الحال لم يكن فى هذا اللون من الغزل شىء من صدق العاطفة ولا من كذبها، لأن المجال ليس مجالا عاطفياً على الإطلاق ، ولكن المسألة من أولها إلى آخرها نزعة شاذة منحرفة من نزعات الجسد . فالحديث فيها لا يمكن إلا أن يكون حديثاً جسدياً منحرفاً مثلها»(١) .

شعراء الديارات والغزل فى المذكر :

عند الحديث عن الغزل فى المذكر لا يمكن إغفال دور الديارات فيه . فالديارات قديمة يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام ولكن أمرها اشتهر أكثر ما اشتهر فى العصر العباسى ، وذلك لتبدل ظروف الحياة بأكثر أشكالها . كانت الديارات منتشرة فى شتى الأمصار الإسلامية وقد تعددت الأحاديث عنها فى كتب القدماء من مثل الشابشتى (ت ٣٩٩ هـ) والبكرى صاحب معجم مااستعجم (ت ٤٨٧ هـ) ، وياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) وابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ) صاحب مسالك الأبصار . تحدث هؤلاء عن مواقعها وما كان يدور فيها ومن كان يتنزه فيها من الخلفاء والأمراء ، ويقصدها من الشعراء وغير الشعراء من المجان يتطرحون فيها ويقصفون .

والدير كما يعرفه ياقوت بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون فى المصر الأعظم وإنما يكون فى الصحارى وضواحى المدن ورؤوس الجبال ، فإن كان فى المصر كانت كنيسة أو بيعة، وربما فرقوا بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود والبيعة

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٢ / ٥٨٧ .

للنصارى [١] . يستدل مما كتب عنها أنها كانت تقام فى أجمل المواقع وأحسنها؛ تحف بها بساتين الفواكه والكروم ، وتكون فيها الحانات ودور الضيافة . كان يقصدها أهل الخلاعة والمجون للشرب فى حاناتها والتمتع بفتيانها وفتياتها والغزل بغلمانها والتهتك بهم إذا ما أنسوا منهم ليناً. (فدير سابر) مثلا كان يقع فى بقعة ، نزهة ، كثيرة البساتين والفواكه والكروم والحانات والحمارين ، والدير حسن عامر ، لا يخلو من متنزه فيه ومتطرب إليه [٢] . وعلى هذه الحال كان دير قزطا ، بل يزيد عنه فى أن فيه ما يطلبه أهل البطالة والخلاعة من الوجوه الحسان والبقاع الطيبه النزهة [٣] . ومثله كان دير زرارة الذى كان فى موضع نزه حسن ، كثير الحانات والشراب لا يخلو ممن يطلب اللعب ويؤثر البطالة وهو من المواطن المستعملة لذلك [٤] .

كل ما تقدم يصدق على معظم الأديرة من مثل دير سمالو [٥] ، ودير الثعالب [٦] . ودير الجاثليق [٧] ، ودير أشمونى . يقول الشابشتى إن الرواد كانوا « يتنافسون فيما يظهرونه هنالك من زيهم ، ويباهون بما يعدونه لقصفهم ، ويعمرون شطه وأكنافه وديره وحاناته ، ويضرب لذوى البسطة منهم الخيم والفساطيط ، وتعزف عليهم القيان ، فيظل كل إنسان منهم مشغولاً بأمره ومكبًّا على لهوه ، فهو أعجب منظر وأطيب مشهد وأحسنه »[٨] . كذلك كان دير الشياطين من مطارح البطالة ومواطن ذوى الخلاعة [٩] . وكذلك كان دير عُمْر الزعفران[١٠]. ودير كَفْتُون من ديارات سوريا ، فقد كان بالإضافة إلى بنائه الجيد ومائه الجارى وأشجاره الجميلة. كثير الرهبان والزوار ، يقصده أهل البطالة واللهو[١١].

---

(١) معجم البلدان . دير (ط صادر بيروت ١٩٥٦) .
(٢) الديارات للشابشتى ٥٥ .
(٣) المصدر نفسه ٦٣ .
(٤) المصدر نفسه ٢٤٧ .
(٥) المصدر نفسه ١٤ .
(٦) المصدر نفسه ٢٤ .
(٧) المصدر نفسه ٢٨ .
(٨) المصدر نفسه ٤٦ .
(٩) المصدر السابق ١٨٤ . (١٠) المصدر نفسه / ٢٩١ .
(١١) مسالك الأبصار ٣٣٥ .

وقد تنبه الدارسون المحدثون إلى حقيقة ما اشتهرت به الديارات وما كان يجرى بين جنباتها. فجميل سعيد يرى أن شهرتها بخمورها وفتيانها وفتياتها كانت كبيرة جداً ، وكان يتردد عليها أهل الخلاعة والمجون من الشعراء يتعشقون غلمانها وسقاتها بعد أن فشت هذه العادة فى العصر العباسى [١] . أما الدكتور يوسف خليف فقد عدّ شعر الديارات لوحة من لوحات مدرسة الأدب المكشوف صور فيها الشعراء الجانب اللاهى من حياتهم تصويراً جميلا رائعاً ، فوصفوا مجالس الشراب ، وتغزلوا بالراهبات الجميلات وبالفتيان والفتيات الذين كانوا يقومون على أمر الأديرة ويقدمون الخمر لروادها ، ثم وصفوا مواكب النصارى فى طريقهم إليها وما كان يجرى فيها من العبث وغيره من مظاهر الحياة فى الأديرة [٢] .

والذى يهم هذا البحث من أمر هذه الأديرة ما يتعلق بالغلمان ، فلم يكن بعضها ليخلو منهم ، وما دامت كما تبين مألفاً لأهل الضلالة والغواية ، وأمكنة للهو والخلاعة وقضاء المتع ، فقد كان الغلمان أحد هذه المتع ، ولا عجب فى ذلك بعد شيوع الفاحشة فى المجتمع العباسى ، لا نقول هذا عن الديارات تخميناً أو حدساً لأن ما وصل إلينا من روايات وأشعار يقطع دابر كل حدس أو تخمين . روى الشابشتى : « خرج يحيى بن زياد ومطيع بن إياس حاجّين ؛ فلما قربا من دير زرارة قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن نُقدم أثقالنا ونمضى إلى زرارة فنشرب فى ديرها ليلتنا ونتزود من مردها وخمرها مايكفينا إلى العودة ثم نلحق بأثقالنا؟ ففعلا » . فقال مطيع :

ألم ترنى ويحيى إذ حججنا ... وكان الحج من خير التجارهْ
خرجنا طالبى حج ودين ... فمال بنا الطريق إلى زُرارهْ
فآب الناس قد غنموا وحجوا ... وأبنا موقرين من الخسارهْ [٣]

---

(١) تطور الخمريات فى الشعر العربى ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة ٢ / ٦٠٢ .

(٣) الديارات ٢٤٨ ومسالك الأبصار ٢٨٦ .

ومما يدل على ما كان يدور فى الديارات من ضلال وغواية ما يذكره بعض الشعراء ، يقول مدرك بن على الشيبانى [١] :

رئم بدير الروم رام قتلى بمقلة كحلاء لا عن كحلِ
وطرّة بها استطار عقلى وحُسْن دَلٍّ وقبيح فِعْل

ويقول ابن الدهقان أبو جعفر محمد بن عمر من ولد إبراهيم بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس فى دير الثعالب [٢] :

دير الثعالب مألف الضُلال ومحل كل غزالة وغزال
كم ليلة أحييتها ، ومنادمى فيها أَبَحُّ مقطّع الأوصال
سمح يجود بروحه ، فإذا مضى وقضى سمحت له وجدت بمالى
ومُنعّم دين ابن مريم دينه غَنِجٌ يشوب مجونه بدلال
فسقَيْته وشربت فضلة كاسه فرويت من عَذْب المذاق زُلال

ولعل من أصدق ما يمثل حقيقة ما كان يجرى فى الديارات وفى حاناتها وفى أيام أعيادها ما قاله جحظة فى دير الزندورد [٣] :

دير تدور به الأقداح مترعةً من كفِّ ساق مريض الطرف وسنان
والعود يتبعه ناى يوافقــه والشدو يحكمه غصن من البان
والقوم فوضى ترى هذا يقبل ذا وذاك إنسان سوء فوق إنسان

يعزز ما نذهب إليه فيما كان يدور فى الأديرة من فحش وتهتك بالغلمان وغير الغلمان ما رواه صاحب مسالك الأبصار من شعر لشاعرين فى دير اللُّج ، وفى دير الرصافة قال الأول [٤] :

---

(١) معجم البلدان ٥١١ .
(٢) المصدر السابق ٥٠٣ .
(٣) الديارات ٣٣٨ .
(٤) مسالك الأبصار ٣٢٦ .

ياليلتى أطيب بها ليلة لو لم يكن قصَّرها الطيبُ
بتنا بدير اللج فى حانة شرابها فى الكاس مكبوب
يديرها ظبي هضيم الحشا يحبه الشباب والشيب
حتى إذا ما الخمر مالت بنا جرت أمور وأعاجيب
فما ترى ظنك فى شادن بات إلى جانبه ذيب

وقال الآخر فى دير الرصافة[1] :

ليس إلا دير الرصافة دير فيه ما تشتهى النفوس وتهوى
بِتُّه ليلة فقضيت أوطا رًا ، ويوماً ملأت قطريه لهوًا

ومهما يكن أمر هذه الأشعار، وما يروى عن الديارات، فإنها تمثل على الأقل ظلالا لواقع ما كان يدور فيها بعكس ما ذهب إليه حبيب زيات حين قال : « ولكن إذا تذكرنا أن الشعر أعذبه أكذبه تحقق أن كل ما هنالك من دعوى الاستمتاع وقصص المنادمات والمداعبات لم يكن فى الحقيقة إلا ضرباً من ضروب الوشى والتطريز فى النظم يراد به مجرد الإغراب والإطراب »[2] . ثم راح يعلل منادمة فتيان الرهبان والراهبات لزوار الأديرة بأنها لم تكن فى حقيقتها إلا خوفاً وتقية ومصانعة ومدارة حتى إذا ما فرغوا منها بادروا توًّا إلى مواقفهم بين صفوف المصلين[3] . هل نستطيع أن ننفى فى ضوء « أعذب الشعر أكذبه » كل ما قيل فى الديارات ؟ ! ثم كيف يقرر حبيب نفسه شرب الخمر والإقبال عليها والتلهى فى الحانات التابعة للأديرة وينكر التهتك والغزل بمن فيها أو ببعضهم على الأقل ، وكلا الأمرين يجر إلى الآخر ؟ ! هل نستطيع أن نكذب إذا ما أخذنا بوجهة نظر الزيات كل ما ورد عند الشابشتى وياقوت وابن فضل الله العمرى وغيرهم فيما يتعلق بهذا الموضوع ؟ ! لا نستطيع ذلك، لهذا نرى أن عبد الرحمن صدقى كان أكثر ليناً من حبيب زيات لما قال: « على أن الأحجى بقراء الشعر أن يحملوا

---

(١) المصدر السابق ٣٣٣ .

(٢) الديارات النصرانية فى الإسلام ٧١ .

(٣) المرجع السابق نفسه ٧٧ .

أكثر ما ورد فى قول الشعراء فى هذا الشأن على أنه أمنية المتمنى واختراع الخيال المريض»[١] . ثم تسامح أكثر عندما ذهب إلى أن أكثر ما يروى من نوادر ماجنة وحكايات شائنة إنما كان مسرحها دار الضيافة[٢] .

لم يقتصر المجون والخلاعة وارتكاب الفاحشة فى الأديرة على الرواد وطلاب المتعة ، إنما امتد الأمر إلى الرهبان أنفسهم — ولكن فى خفية وتقية — . روى عن الجاحظ[٣] أن جماعة من بنى ثعلب أرادوا قطع الطريق على مال السلطان فأُعلموا أن السلطان قد عرف بهم وأقبل فى طلبهم ، فساروا ثم أزمعوا الاختفاء فى دير العذارى فصاروا إليه وفتح لهم . فما إن استقروا حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فى طلبهم . فلما جاوزتهم وأمنوا ، اتفقوا فيما بينهم على القس فأخذوه فشدوه، ثم خلا كل منهم براهبة ممن كانوا يظنونهن أبكاراً، فوجدوهن كلهن ثيّبات وقد افتضهن القس فقال أحدهم[٤] :

ودير العذارى فضوح لهن ... وعند اللصوص حديث عجيب
خلونا بعشرين دَيْرِيةً ... ونيْلُ الرواهب شىءٌ غريب
إذ هنّ يرهزن رهز الظراف ... وباب المدينة فج رحيب

وقال آخر[٥] :

وألوط من راهب يدّعى ... بأَن النساء عليه حرام
يحرم بيضاء ممكورة ... ويغنيه فى البَضْع عنها غلام

---

(١) ألحان الحان ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ٥٦ .

(٣) انظر : الديارات ١٠٧ ومعجم البلدان ٥٢٣ ، ومسالك الأبصار ٢٦٠ .

(٤) هذه الأبيات فى معجم البلدان ٥٢٣ ومسالك الأبصار ٢٦٠ .

(٥) هذه الأبيات فى : الديارات ١٠٨ ومسالك الأبصار ٢٦١ ، وعيون الأخبار ٤ / ١١٢ مع اختلاف بسيط . والأبيات الثلاثة الأولى فى كتاب (الكناية والتعريض) للجرجانى ص ٢٨ قال إنها لشاعر اسمه (أبو المهند) وأشار إلى ذكر ابن قتيبة لها وقال إن أبا حيان نسبها للجاحظ فى رسالته التى عملها بقرطبة .

إذا ما مشى غض من طرفه وفى الدير بالليل منه عُرام[١]

ودير العذارى فضوح لهن وعند اللصوص حديث تمام

لم يخل شعر الديارات من غزل فى المذكر لتردد جماعة من الشعراء ممن اختصوا بها عليها فكانوا يذهبون إلى هناك ليتطرحوا فى حاناتها ويعبثوا بفتياتها وفتياتها ويأخذوا بنصيبهم من اللهو فيها .

من أبرز شعراء الديارات محمد بن عبد الرحمن الكرخى المعروف بالثروانى ، قال عنه الشابشتى : « والثروانى هذا كوفى من المطبوعين فى الشعر ، والمنهمكين فى البطالات والمتطرحين فى الحانات ، والمدمنين لشرب الخمر ، والمغرقين فى اتباع المرد ، لا يعرف شيئاً غير ذلك . ولا يوجد فى شىء من أمر الدنيا إلا فيه ، وكان آخر أمره أن أصيب فى حانة خمار بين زقى خمر وهو ميت »[٢] . من الأديرة التى كان يتطرح فيها دير أشمونى ، ودير مارت مريم ، ودير حنّة الكبير ، ودير الحريق الذى يقول فيه[٣] :

دير الحريق وقبة السُّنيق مغنًى لحلف مُدامة وفسوق[٤]

وطن لفرقته شرقت بدمعتى ولرحلتى عنه غصصت بريق

وقد كان هذا الدير من أحب الأديرة إليه ، حكى ابن فضل الله العمرى عن جاره حمزة بن أبى سلامة ، قال : « كان الثروانى جارى بالكوفة وكان كثير الإلمام بالديرة ، فباكرنى فى يوم شعانين وقال لى : اعزم بنا اليوم على الشرب فى دير الحريق لأنه يوم سيقصده فيه خلق . ولى به صديق من رهبانه ظريف مليح القلاية ، جيد الشراب ، فهلم نتنزه أعيننا فيما نراه من الجوارى والغلمان ، ثم نعدل إلى قلاية صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض . فخرجنا فرأينا من النساء ، والوصائف والولدان فى الحلى والحلل ما لم أر مثله قط .

---

(١) عُرام : شراسة .

(٢) الديارات ٢٣١ .

(٣) المسالك ٣١٥ .

(٤) السنيق : قبة كانت إلى جانب الدير ، ثم كانت بجانبه أيضاً قبة أخرى تعرف بقبة غُصَيْن ، وسنيق وغصين راهبان نسبا إليهما .

فلم يزل يعبث ويتعرض ويقبّل ويعانق — وكان معروفاً بذلك — فما أحد ينكر عليه فعله إلى بعد الظهر . . . »[١] . ومن ثم ذهبا إلى الراهب صديق الثروانى ، فدخلا قلايته ، فأكلا وشربا وتمتعا بالمناظر الجميلة ، ثم ناما هناك ليلتهما تلك . وقال الثروانى فى هذه المناسبة أبياتاً يصف فيها بعض مراسم النصارى فى الشعانين ، وهى :

خرجنا فى شعانين النصارى وشيّعنا صليب الجاثليق
فلم أرَ منظرًا أحلى بعينى من المتقينات على الطريق
حملن الخوص والزيتون حتى بلغن به إلى دير الحريق
أكلناهن باللحظات عشقاً وأضمرنا لهن على الفسوق

ومن شعراء الديارات ممن كانوا يميلون إلى الغلمان عمرو بن عبد الملك الورّاق الذى يقول فيه الشابشتى : « وكان عمرو هذا من الخلعاء المجان ، المنهمكين فى البطالة والخسارة والاستهتار بالمُرْد والتطرح فى الديارات ، وله شعر كثير فى المجون ووصف الخمر وقد ذكرنا منه ما يليق بالكتاب »[٢] . يتضح من هذا النص أن شعراً له لم يصل إلينا ، ولكننا فيما تبقى من شعره نستطيع أن نتعرف مذهبه وديدنه فى الخلاعة والمجون والميل إلى الغلمان ، قال[٣] :

أيها السائل عنى لست من أهل الصلاحْ
أنا إنسان مريب أشتهى نيل الملاح
قد قسمت الدهر يومي ن لفسق ولراح
لا أبالِي مَنْ لَحَانِى لا أطيع الدهر لاح

ولعل الأبيات التالية خير ما يكشف عن مذهبه فى الحياة بحيث لم يبرك شيئاً يمت إلى الخلاعة بصلة إلا وتعلق منه بسبب ، قال[٤] :

---

(١) المسالك ٣١٥ — ٣١٦ .
(٢) الديارات ١٧٢ .
(٣) الديارات ١٧٣ ؛ والمسالك ٣٠٩ والبيتان الأخيران غير موجودين فيه .
(٤) الديارات ١٧٣ .

إذا أنت لم تشرب عُقارًا ولم تَلُط. فأنت لعمرى والحمار سواء
ولم تمل بيتاً من قِحَابٍ ولم يبت فراشك أرضاً ما عليه غطاء
ولم تك بالشطرنج عبدًا مقامرًا وفى النرد عند الخَصْل منك وفاء[1]
ولم تك فى لعب النوى متماحكاً فتسلب مالاً أو يكون نواء[2]
ولم تتخذ كلباً وقوساً وبندقاً وبرج حمام لم يصبك رخاء
ولم تدرِ ما عيش ولم تلق لذة فأنت حمار ليس فيك مِراء
فإن أنت لم تفطن لعيش جهلته فدونكه ما دام فيك بقاء
وإياك أن تنْفكَّ من سكر طافح مساؤك صبح والصباح مساء
(و...) من لقيت الدهر منهم ولا يكن عليك إذ أعطوك منك إباء

فكما تمثل هذه الأبيات حياة الشاعر الخاصة فإنها تشير إلى ما كان يسود مجتمع القرن الثانى من ضروب اللهو والمتعة من لواط وشرب خمر وارتياد بيوت الدعارة والقيان ، ولعب الشطرنج والقمار والخروج للصيد والقنص والاهتمام بهما ، ثم الاهتمام بتربية الحمام ، وغيرذلك من سبل العيش المترفة التى عرفتها الطبقة المنعمة من الخلفاء والأمراء ومن كان يلوذ بطرفهم من الشعراء وغير الشعراء .

ومنهم بكر بن خارجة الكوفى ، كان مولى لبنى أسد . يقول أبو الفرج إنه كان وَرّاقاً ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة ، وكان معاقراً للشرب فى منازل الخمارين وحاناتهم وكان من المجان المطبرعين . روى أنه كان يتعشق غلاماً نصرانيًّا يقال له عيسى بن البراء العبادى الصيرفى وله فيه قصيدة يذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم ويسمى دياراتهم ويفضلهم ، منها :

وشادنٍ قلبى به معمودُ شيمتُه الهجران والصدود
لا أسأم الحرص ولا يجود والصبر عن رؤيته مفقود

---

(١) الخصل : الجمع الخصول وهو ما يُتقامر عليه ، يقال أحرز خصله وأصاب أى غلب .
(٢) يقول المحقق كوركيس عواد : الصواب (بواء) أى تساوى اللاعبين فى النتيجة .

زناره فى خصره معقود كأنه من كبدى مقدود[١]

ومما قاله فيه[٢] :

أجرنى ! مُتُّ قبلك من همومى وأرشدنى إلى وجه الطريق
فقد ضاقت علىّ جهات أمرى وأنت المستجار من المضيق

ومن الأديرة التى كان يتردد عليها دير حنة ، ودير الجاثليق ، وقُبّة الشتيق على طريق الحج. وفيه قال الشابشتى : « كان من المنهمكين فى الخمر والمستهترين بالتطرح فى الحانات والديارات ، وكان أكثر شعره فى ذلك »[٣] . له فى دير حنة أبيات جميلة يحن فيها إليه ويتشوق إلى خمرته أيام كان ينهل منها فى صبوحه وغبرقه ذاكراً سقاته ، واصفاً روضته وما فيها من الأشجار وأنواع الورود المختلفة ، قال[٤] :

كأن رياضه حسناً ونوّرًا سحائب ذُهّبت بسنا البروق
كأن تقاطر الأشجار فيه إذا غَسق الظلام قطارُ نوق
وماذا شئت من دُرّ الأقاحى هناك ومن يواقيت الشقيق

ومنهم محمد بن أبى أمية الذى تقدم ذكره فى شعراء الغزل فى المذكر وكان يتطرح فى دير الجاثليق[٥] .

ويدخل أبو نواس والحسين الخليع فى عدد شعراء الديارات ، فمن الديارات

---

(١) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ٨٧ .

(٢) المسالك ٣٠٨ . وقد غلط صاحب المسالك فى اسم الغلام فقال أسمه عشير بن إليا الصيرفى من أهل الحيرة . وقبله غلط فيه البكرى فقال : « قال أبو الفرج : هذا الشعر يقوله فى غلام امرئ نصرانى من أهل الحيرة يقال له : عيسى بن البراء الصراف » معجم ما استعجم ٢ / ٥٩٨ .

(٣) الديارات ٢٤٢ .

(٤) المسالك ٣١٣ .

(٥) الديارات ٢٨ ومعجم البلدان ٥٠٣ .

التى كان يتطرح فيها أبو نواس ديارات الأساقف[١]، وديرسرجس[٢] وديرفيق[٣].
أما الديارات التى كان يقصدها الحسين وله أخبار فيها فديرسابر[٤] وديرسرجس[٥].

غزل شعراء الديارات فى الغلمان يجمع بين الاتجاهين الحسى المادى، والحسى الفاحش الصريح.

أما عن الاتجاه الحسى المادى، فأكثر شعرهم فى غلمان الأديرة يدور على تعلقهم بهم وإعجابهم بجمالهم. ومما أعجب به الشعراء فى غلمان الأديرة عيونهم. قال الثروانى[٦].

وظبى فى لواحظ مقلتيه نُعاس من فتور لا نُعاس

أما بكر بن خارجة فتغزل بأحد السقاة وقال إن عينيه ترميان القلوب كرمى السهام، قال فى ديرمارت مريم[٧].

ولفتيةٍ حفُّوا به يعصون لوم اللوّم
يسقيهم ظبى أغن (م) لطيف غَلْق المِعْصم
يرمى بعينيه القلو ب كمثل رمى الأسهم

أما محمد بن أبى أمية فتغزل فى أحد غلمان دير الجاثليق فقال[٨]:

ألا ربّ يوم قد نعمت بظله أُبادر من لذات عيشى ما صفا
أُغازل فيه أدعج الطرف أهيفا وأُسقى به مِسْكيَّة الطعم قرقفا

ثم تغزلوا فى الغلمان وتحدثوا عن جمالهم بصورة عامة، فمحمد بن أبى أمية يتعجب من أحد الغلمان ويرى أنه وإن كان فى صورة الإنس إلا أن مكره

---

(١) الديارات ٢٣٧.
(٢) المصدر السابق ٣٤، ٢٣٥.
(٣) الديارات ٢٦ والمسالك ٣٣٧.
(٤) الديارات ٥٥ والمسالك ٢٧٩.
(٥) الديارات ٣٤، ٢٣٥.
(٦) مسالك الأبصار ٣١٧.
(٧) معجم ما استعجم ٢/٥٩٨. المسالك ٣١٨.
(٨) الديارات ٢٨، معجم البلدان ٥٠٣.

مكر الشياطين ، أما جماله فحسبه أنه كاد يخرج الشاعر الماجن عن دينه !! قال[١] :

لهفى على قمر فى الدير مسجون ... فى صورة الإنس فى مكر الشياطين
والله ما أبصرت عينى لمحاسنه ... إلا خرجت له طوعاً من الدين

أما الثروانى فلم يستطع سلواً عن وجه ابن وضّاح أحد غلمان دير حنّة الكبير لفتنته وجماله فقال[٢] :

ومن لى فيه بالسّلْو ... ة عن وجه ابن وضّاح ؟
غـــزال صيغ من فتنـ ... ـةٍ أبدان وأرواح
إذا راح إلى البيع ... ة فى أثواب أمساح
ففى كفيه إفسادى ... وفى كفيه إصلاحى

وأما بكر بن خارجة فقد كان معجباً بغلمان قبة الشتيق ، وفى الأبيات التالية ! دعوة منه إلى أصدقائه لزيارتها كى يتمتعوا بحسن غلمانها ، قال[٣] :

حانة حشوها ظباء ملاح ... هيّجوا بالدلال قلباً سقيما
فاقصدوا قبة الشتيق وظبياً ... سكن الدير قد سبانى رخيما
عقد زناره توصل بالقلـ ... ـب فأمسى بين الحشا مخزوما

ثم قال أبياتاً فى غلام من غلمان الدير نفسه شبهه بالشادن الأحور وادعى أنه لم ير شبيهاً له ، ثم إنه عشقه فكتم هواه مدة طويلة حتى إنه لم يستطع الاستمرار فى الكتمان لما رأى أن البلى أخذ يدب إلى جسمه . فمن يسمعه يخاله أحد المتيمين ويحسب أنه يقول عن عاطفة ملتهبة صادقة وكأنه يتغزل فى امرأة وليس فى غلام ، قال[٤] .

---

(١) الديارات ٢٨ .
(٢) المسالك ٣٢٠ .
(٣) الديارات ٢٤٢ .
(٤) المصدر السابق ٢٤٣ .

يرنو بعينى شادن أحور تخاله للسكر وسنانا
ما رأت العينان شبهاً له إنساً إذا عُدّ ولا جانا
مَعاقد الزنار، فى خصره عَذَّبْنَنى بالحب ألوانا
كتمت حبى وهواى له دهرًا وأحوالا وأزمانا
حتى تولى جسدى للبلى فما أطيق اليوم كتمانا

ولأبى نواس قصيدة طريفة فى غلام نصرانى كان يهواه مطلعها[1] :

بمعمودية الدير ، العتيق بمطرينيهـا بالجاثليق

ذكر فيها كثيراً من الألفاظ والشعائر المسيحية وأديارها على سبيل القسم ومخاطبة الغلام لكى يرحم تحرقه وجفوف ريقه ، ومنها :

وبالصُّلب العظيمة حين تبدو وبالزنار فى الخصر الدقيق
وبالحسن المركب فيك ألا رحمت تحرق وجفوف ريق
أما والقرب من بعد التنائى يمين فتى لقائله عشيق
لقد أصبحت زينة كلّ دير وعيدٍ مع جفائك والعقوق

وفى قصيدة أخرى مما قاله فى « ديارات الأساقف» وصف غلاماً بأنه رخيم الخطا ، رقيق الجسم وبالغ فى هذه الرقة حتى قال إن أى كف يلمسه يدميه لنعومته ، ثم انتقل إلى وصف جيده والصليب الذى كان فيه فقال إنه حل فى موضعه المناسب . وقد كان غلمان النصارى — وما زال بعضهم إلى اليوم — يضعون الصلبان فى أعناقهم ، قال[2] :

ورخيم الخطا يكاد من الرق (م) ة يدمى أديمَه كُلُّ طرف

---

(١) الديارات ٢٠٥ ، المسالك ٣٣٧ ، الفكاهة والانتناس ٨٠ ، ٨١ ففيه أبيات من هذه القصيدة لم يذكرها صاحب الديارات .

(٢) الديارات ٢٣٧ .

حل منه الصليب فى موضع الجيـ (م) ـد فقد خصّه على كل إلف

أما الاتجاه الفاحش وما فيه من ذكر الخلوات والدبيب إلى الغلمان وارتكاب الفاحشة معهم فقليل ، ربما تعود قلته إلى ضياع شعره أو امتناع الرواة عن روايته . مثال هذا ما قاله الشابشتى عن شعر عمرو بن عبد الملك الوراق ونقلناه فى أن شعره فى المجون كثير ولكنه لم يذكر منه إلا ما يليق بالكتاب .

ولكننا على الرغم من هذا وبالإضافة إلى ما تقدم مما كان يدور فى الديارات لا نعدم الإشارة إلى الغزل الفاحش فى غلمان الأديرة ، وهذه أبيات للشاعر ابن جمهور محمد بن الحسن القمى صاحب النوادر مع زاد مهر جارية المنصور ، قال[1] :

وكم وقفةٍ فى دير قُنَّى وقفتها أغازل ظبياً فاتر الطرف أحورا

وكم فتكة لى فيه لم أنس طيبها أمتُّ بها حقًّا وأحييت منكرا

أغازل فيه شادناً أو غزالة وأشرب فيه مُشرق اللون أحمرا

يظهر الغزل الفاحش فى غلمان الأديرة عند الحسين الخليع الذى يقول فيه الشابشتى : « وكان الحسين مستهتراً بالخدم جدًّا . ولم يقصر عن ذاك حتى مات »[2] . من غزله الفاحش ما قاله فى دير سابر من أبيات يذكر فيها شرب الخمر وتهتكه بالغلمان . قال[3] :

فى دير سابر والصباح يلوح لى فجمعت بَدْرًا والصباح وراحا

ومنعّم نازعت فضل وشاحه وكسوته من ساعدىَّ وشاحا

ترك الغيور يعض جلدة زنده وأمال أعطافاً علىّ مِلاحا

ففعلت ما فعل المشوق بليلةٍ عادت لذاذتها علىّ صباحا

---

(١) معجم البلدان ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

(٢) الديارات ٥٦ .

(٣) الديارات ٥٥ البيت الأول والأخير فقط ، معجم البلدان ٥١٤ ، مسالك الأبصار ٢٧٩ الأول والثانى والأخير . (وهناك اختلافات فى بعض الألفاظ) .

فاذهب بظنك كيف شئت ، فكله مما اقترفت تغطرساً وجماحا

ومنه ما قاله فى غلام فى دير سرجس وما جرى له معه ، قال[١] :

يا ربّ ملتبس الجفون بنومةٍ نَبَّهْتُه بالرّاحِ حين أراحا

فكأن ريا الكأس حينَ نَدَبْتُه للكأس أنهضَ فى حشاه جناحا

فأجاب يعثر فى فضول ردائه عجلان يخلط بالعثار مِراحا[٢]

مازال يضحك بى ويضحكنى به ما يستفيق دعابة ومزاحا

فهتكت ستر مجونه بتهتكى فى كل مُلهية ، وبُحْتُ وباحا

---

(١) الديارات ٢٣٥ ، معجم البلدان ٥١٤ ، المسالك ٢٨٥ .

(٢) المراح : من المرح وهو النشاط والاختيال والتبختر .